

الأدب الأندلسي

من الفتح إلى سقوط الخلافة

تأليف

الدكتور أحمد هيكل

أستاذ الأدب بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

١٩٨٥



دارالمعارف

إهداء

إلى

الدكتور طه حسين و الأستاذ إبراهيم مصطفى

أستاذي الجليلين . ليس أحد أجدر منكما بأن يهدي إليّ هذا الكتاب ، فأولكما
قد أسس المدرسة الأندلسية في بلادى ، حين ألف أول بعثة مصرية تطلب العلم في
إسبانيا ، وثانيكما قد رشخني عن دار العلوم عضواً في هذه البعثة . . . فلكم الدراسة
وصاحبها مدينان لكما ديناً لا يقضيه كتاب يهدى ، ولا ثناء يقام .

فأقبلا هذا العمل المتواضع ، لعل رضاكما عنه ، يخفف بعض دين صاحبه .

أحمد هيكال

مقدمة

عاش الأدب العربي في الأندلس نحو ثمانية قرون، وتأثر بتلك البيئة التي عاش فيها ، وأثر في بيئته وفيها جاورها من بيئات. وليست تلك القرون الطويلة بالزمن المين في تاريخ أدب ، وليست الأندلس ببيئتها الطبيعية وظروفها الاجتماعية والسياسية ، بالشئ الذي يمكن إغفاله في درس هذا الأدب ، وأخيراً ليس التأثير الذي كان للأدب الأندلسي فيها جاوره من آداب ، بأقل خطراً من كل ما تقدم .

ومن هنا ، وجبت العناية بدرس هذا الأدب ، وفاء بحق ما يقرب من ثمانية قرون من تاريخ الأدب العربي . ووجبت العناية بدرسه كذلك ، تقديراً لآثار إقليمية لها فاعليتها في حياة هذا الأدب ، ثم وجبت العناية بدرسه أيضاً توضيحاً لنفحات عربية إسلامية حملت إلى بعض الآداب الأوروبية أريجها العطر .

وعلى الرغم من هذا كله ، قد لقي الأدب الأندلسي كثيراً من إهمال الدارسين في عالمنا العربي ، مع وفرة وجوده ما كتبوا عن أدب المشرق، منذ جاهليته إلى عصره الحديث، ومن مهده في جزيرة العرب إلى أقاليمه المختلفة، في العراق والشام ومصر . وقد يكون إعراض بعض هؤلاء عن درس الأدب الأندلسي ، بحجة أنه لم يأت بجديد ، وأنه ليس إلا صورة للأدب المشرق أو محاكاة له . ولكننا إذا سلمنا جدلاً بهذا الحكم - مع أنه غير صحيح - فنحن أن نسأل : هل يشترط لإدراة أدب إقليم أو عصر ، أن يكون مغايراً تماماً لأدب أى إقليم أو عصر آخر ؟ أو ليس على أى حال أدباً يستحق الدرس بصرف النظر عن مغايرته أو مماثلته لغيره ؟ ثم أليس الدرس وحده هو الذى سيوضح لنا لماذا

جاء هذا الأدب دون جديد ، أو لماذا جاء على صورة غيره أو محاكياً له ، إن صح أن ذلك له حظ من الصحة ؟

وليس معنى ذلك أن أقلام الباحثين في عالمنا العربي قد ولت ظهورها تماماً لهذا الميدان ؛ فالحق أن أقلاماً قد خاضته في جراءة ، فأبلى بعضها وأخفق بعضها . وعلى أية حال فأغلب الدراسات التي أرخت لأدب الأندلس . قد جاءت دراسات إما موجزة وإما ناقصة وإما أقرب إلى موضوعات الإنشاء .

والسبب في الإيجاز رغبة بعض الباحثين ، في التأريخ للأدب الأندلسي كله في كتاب واحد . ومن هنا تغفل حقائق كثيرة . وتتوارى أمور كانت بحاجة إلى الظهور .

أما السبب في النقص ، فاعتقاد بعض الدارسين خطأ أن الأدب الأندلسي ليس إلا أدباً عباسياً يجب أن يدرس في عصر بني العباس ، ومن ثم يكتفى بالأمور العامة على السطح . حيث يتحدث عن الطبيعة ومجالس اللهو أو شيء يقرب من ذلك ، ثم يترجم لنفر من الشعراء ، وربما يضاف إليهم نفر من النثرين ، وهكذا يظن أن ذلك تأريخ للأدب الأندلسي .

أما أسوأ ما يكتب عن هذا الأدب فهو الصنف الأخير من هذه الأصناف ، وهو صنف موضوعات الإنشاء . وقد لجأ إليه بعض من تصدوا لتأريخ الأدب الأندلسي ، متوهمين أنه متى ذكر النسيم والورد والحدول والتبع ، ومتى حشرت ألفاظ الرقة والعدوبة والترقوق والسلاسة ؛ كان هذا حديثاً عن أدب الأندلس !!

وربما كان المستشرقون — إلى اليوم — أقرب إلى المنهج وأكثر اعتماداً على الحقائق ، فيما كتبوه عن الأدب الأندلسي . ومع ذلك فتأريخهم له — برغم منهجيته وحقائقه — لا يزال يتسم بالإجمال والاقتضاب والسرعة . ولهذا أمكن القول بأنه إلى اليوم ، لم يظهر

تاريخ منهجي مفصل للأدب الأندلسي .

ولقد شاء الله أن أنخصص في هذا الفرع من فروع الأدب العربي ، وأن تكون دراساتنا العليا وفقاً عليه ، وأن يكون مقر هذه الدراسات هو إسبانيا موطن هذا الأدب حيث نشأ وتطور ، وحيث تنال دراسته عناية كبيرة . كذلك شاء الله أن يرتبط عملي الجامعي بهذا الفرع من فروع المعرفة ؛ إذ أسند إلى تدريس الأدب الأندلسي في كلية دار العلوم ، منذ سنة ١٩٥٥ .

ولهذا كله رأيت أن أضطلع بدراسة منهجية مفصلة للأدب الأندلسي ، أتناوله فيها منذ دخول المسلمين إلى إسبانيا ، وأتبعه خلال عصورهم المختلفة فيها ، وأحدد ما قد يكون له من اتجاهات فنية ، وأبحث عما قد يغذيه من رواقد مشرقية ، وأكشف عما قد يخالطه من منابع مغربية . كل ذلك مع الترجمة لمشاهيره والتعريف بروائمه ، ثم رسم خصائصه وتحديد معالمه ، وبيان صلته بالآداب الأوربية التي جاورته أو اتصلت به .

وقد عازمت على أن تتم هذه الدراسة مسترشدة - ما أمكن - بالعصور المميزة في تاريخ الأندلس . حيث أخرج كتاباً عن «الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة» ثم آخر عن «الأدب الأندلسي في عصر الطوائف» ثم ثالثاً عن «الأدب الأندلسي في عهدي المرابطين والموحدين» ثم رابعاً عن «الأدب الأندلسي في العهد الغرناطي» ثم خامساً عن «خصائص الأدب الأندلسي وتأثيره في الآداب الأخرى» .

ويلاحظ أني سأقرب في تقسيمي للعصور الأدبية الأندلسية من التقسيم السياسي التاريخي لهذا الإقليم . ولست أجهل أن ذلك التقسيم غير دقيق ، ولست أجهل أيضاً أن الأدب لا يتغير بمجرد قيام دولة وسقوط أخرى ، ولكني قربت من هذا التقسيم لتحديد معالم الطريق أولاً ، ولارتباط الأدب العربي بالدول والسياسات ثانياً . على أني - كما سيرى - لن أترجم بالتقسيم الذي سار عليه المؤرخون ، وسوف أختار أنسب التقسيمات

وأقربها إلى التأثير في الأدب . لهذا سأتناول في هذا الكتاب الأول تاريخ الأندلس الأدبي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، مع كون هذه الحقبة من تاريخ الأندلس تمثل عصرين مختلفين : العصر الأول هو ما يسمى بعصر الولاة ، وهو الذي يبدأ بالفتح الإسلامي ، وينتهي بإقامة عبد الرحمن الداخل للدولة بنى أمية في الأندلس . أما العصر الثاني فهو ما يسمى بعصر بنى أمية ، وهو الذي يبدأ بقيام عبد الرحمن الداخل بالأمر ، وينتهي بسقوط الخلافة الأموية في الأندلس ، وقيام الحكم الجمهوري في قرطبة على يد ابن جهور .

وإنما جمعت هذين العصرين في دراسة ، لأن الأول منهما ليس إلا مقدمة للثاني . وإنما وقفت عند سقوط الخلافة ، لأن سقوطها يقيم دولة جديدة لها خصائصها السياسية والاجتماعية والثقافية ، التي من شأنها أن تنتج أدباً ربما غاير الأدب السابق بعض المغايرة . ولعدم التزمى للتقسيم السياسي المعروف ، ولكوفي أنظر إلى الدول وسياساتها كمؤثر فقط من المؤثرات الكثيرة التي تصيب الأدب ؛ رأيت أن العصر الأموي طويل ، وقد اختلفت أحوال الأندلس فيه اختلافاً ليس باليسير . وكان هذا الاختلاف يحدث بين فترة وأخرى من فترات هذا العصر الأموي ، فيمس النواحي السياسية والثقافية والاجتماعية جميعاً . من أجل هذا رأيت أن أقسم هذا العصر الأموي إلى فتراته المميزة المختلفة ، حسب الأدوار التي مر بها إبان هذا التاريخ الطويل . وعلى هذا قسمته إلى تلك الفترات : فترة تأسيس الإمارة ، وفترة صراع الإمارة ، وفترة الخلافة ، وفترة الحجابة ، وأخيراً فترة الفتنة . وقد جعلت لكل فترة من تلك الفترات فصلاً . فإذا تذكرنا أنه سيسبقها فصل عن فترة الولاة ؛ تبين أن فصول هذا الكتاب الأول ستكون ستة ، كل فصل منها سيتناول تاريخ أدب فترة مميزة .

ولا كان الأدب — كنشاط إنساني في — متأثراً لا محالة بما يحيط به من ظروف

سياسية واجتماعية وثقافية ؛ رأيت أن أصور كل فترة أولا من التوسيع السياسي والاجتماعي والثقافية ما أمكن ، ثم أتبع ذلك بالحديث عن الأدب كنتيجة أو كظاهرة متأثرة بكل ما سبق .

وقبل أن أشرع في تلك الفصول الستة التي تتحدث عن تاريخ أدب الأندلس إلى سموط الخلافة ، سأمهّد بتحليل «اسم الأندلس» ثم بإيراد «لمحة جغرافية» تصور طبيعة هذه البلاد ، ثم أتبع ذلك بعرض تاريخي سريع «لإسبانيا قبل المسلمين» ثم «للمسلمين في إسبانيا» ، ثم أختتم هذا التمهيدي بتصوير «المجتمع الأندلسي» من حيث عناصره البشرية ودياناته ولغاته وشخصيته ؛ ليكون ذلك بمثابة المدخل لهذا التاريخ المبسط للأدب الأندلسي ، الذي أرجو أن أضطلع به ، ثم ليقبل القارئ على هذا البحث الأدبي وبين يديه ما يلقى ولو بعض الضوء ، على ما قد يكون بين السطور من غموض .

وقبل أن أختتم هذه المقدمة أئبه إلى أن بعض المشتغلين بالدراسات الأندلسية ، يرى عدم جدوى التاريخ العام للأدب الأندلسي في الوقت الحاضر ؛ وذلك لقلّة النصوص ، وخاصة ما يتصل منها بالفترات الأولى لتاريخ المسلمين في الأندلس . وهم يرون الاكتفاء بالأبحاث الجزئية التي تتناول موضوعاً خاصاً ، أو ظاهرة معينة ، أو أديباً بارزاً أو كاتباً كبيراً ، ونحو ذلك . والحق أن النصوص التي يعتمد عليها دارس تاريخ أدب الأندلس قليلة نسبياً ، وعلى الأخص تلك التي تتصل بالفترات الأولى من تاريخ الأندلس ؛ وذلك لكثرة ما ضاع من تراث المسلمين في تلك البلاد ، بل لكثرة ما أنت عليه أيدي الإتلاف والإبادة من المسيحيين والمسلمين على السواء . لكن كل ذلك - في رأيي - لا يصح أن يكون حائلاً دون عمل تاريخ منهجي للأدب الأندلسي ؛ فقلة النصوص وعدم وفرة المواد ، لا يصح أن توقف العلماء عن البحث في أديبهم بحثاً تاريخياً عاماً ، يعتمد فيه على الموجود من النصوص ، ولا يعطى الحكم الأخير في مسألة من المسائل

التي نقل أسانيدها أو لا تتوافر أدلتها . إننا لو تركنا التاريخ للأدب الأندلسي حتى
تكتشف كل النصوص المخطوطة والمدفونة ، وحتى يعثر على الضائع منها ويجمع المتفرق ؛
فلن نؤرخ لهذا الأدب أبداً ؛ لأن شيئاً من تلك النصوص سيظل دفيناً أو ضائعاً أو مفوقاً
حتماً .

ولو انتظر من قد أرخوا لأدب المشرق حتى تظهر كل نصوصه لما كتبوا شيئاً عن
تاريخ الأدب العربي في الجاهلية أو الإسلام . إن الواجب أن ندروس ما بين أيدينا
ونؤرخ على أساسه ، على أن نعتبر ذلك خطوة يجب أن تليها خطوات ، ويجب أن نستفيد
في كل خطوة من كل مخطوط ينشر ، ومن كل نص يعرف-، ومن كل بحث خاص
يقدم ، وسبيلنا إلى ذلك أن نبحث عن النصوص دائماً ، نحققها وننشرها ثم نعلم عليها
فيما نكتب من تاريخ أدب . وهكذا يأتي كل بحث في هذا التاريخ الأدبي أوفى وأكمل
وأشمل من سابقه ، بل تأتي كل طبعة من طبعات التاريخ الواحد أكثر حقائق ، وأصح
أدلة ، وأصدق أحكاماً .

وعلى هذا مضيت في هذا العمل برغم ما يتطلبه من جهد مضن ، وتنقيب متصل
وبحث صابر .

وقد سألت الله : أن يجعل هذا العمل خالصاً له ، وأن يعين عليه ، وأن ينفع به .

المؤلف

القاهرة ١ ربيع الأول سنة ١٣٧٨
١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٨

تمهيد
الأندلس والأندلسيون

١ - اسم الأندلس :

لم تُعرف شبه الجزيرة التي تشمل حالياً دولتي إسبانيا والبرتغال باسم الأندلس ، قبل أن تعرف المسلمين ، وإنما عرفت في أقدم عصورها باسم إيبيريا Iberia نسبة إلى الإيبيريين Los Iberos الذين كانوا من أقدم من سكن هذه البلاد من البشر .

ثم عرفت شبه الجزيرة بعد ذلك باسم إسبانيا ، وهذا الاسم Hispania قد أطلقه الرومان على شبه الجزيرة حين حكموها ، وقد استنبطوه من تعبير فينيقي ، كان الفينيقيون قد أطلقوه من قبل على الشاطئ الذي نزلوا به من تلك البلاد ، حين اتصلوا ببعض جهاتها قبل الرومان ؛ وهذا التعبير الفينيقي i-schephan-im يعني « شاطئ الأرانب » . ويقال في تحليل ذلك : إن الفينيقيين قد صادفوا كثيراً من الأرانب على الشاطئ الإيبيري الذي نزلوا به^(١) .

كذلك كان الجزء الجنوبي من إسبانيا يسمى باسم « بتيكا » Betica وكان ذلك في العهد الروماني ، ثم سمي باسم « فندلسيا » Vandalisia حين سكنه الوندال بعد الرومان على ما سنوضح فيما بعد .

فلما جاء المسلمون بعد ذلك أطلقوا على شبه الجزيرة جميعاً اسم الأندلس ، وظل مؤرخوهم وجغرافيوهم وسائر علمائهم وأدبائهم يستعملون هذه التسمية ويفضلونها حين يريدون شبه الجزيرة الإيبيرية .

وأرجح الآراء أن هذا الاسم قد أتخذه المسلمون من « وندلس »^(٢) Vandalos ، وهو اسم لبعض القبائل الأوربية الشمالية ، التي أضافت في أوائل القرن الخامس الميلادي

Aguado Bleye : Historia de Espana, p. 53.

(١)

Levi Provençal : Espaná musulmana, p. 44.

(٢)

على ممتلكات الرومان ، وكان هؤلاء « وندلس » — أو كما تعود كثير من الباحثين تسميتهم بالوندال — قد وصلوا إلى جنوب إسبانيا وسموه باسم « فندلسيا »^(١) نسبة إليهم . فلما جاء المسلمون فيها بعد وعرفوا ما كان من أمر الـ « وندلس » بتلك البلاد سموها « بلاد الأندلس » ، وكانهم أضافوا تلك البلاد إلى هؤلاء الذين حكموها من قبل واشتهر أمرهم بها . وكل الذي فعله المسلمون من تغيير في اسم « وندلس » هو همز الصوت الأول ، ومن هنا أصبحت الكلمة أندلس ، بدلا من وندلس .

ويمكن أن يقال : إن الكلمة مرت بمراحل صوتية ثلاث . الأولى « فندلس » كما تدل صورة الكلمة في حروفها اللاتينية ، وكما يدل كذلك النطق الإسباني للكلمة Vandalos . والمرحلة الثانية « وندلس » كما يدل عليها نطق الكثيرين للكلمة بالواو بدلا من « الفاء » المجهورة التي يرمز إليها عادة بالحرف « V » . وهذا ليس بغريب في التطور الصوتي ، فكثير من الكلمات قد حدث له هذا التطور ، وبناء عليه أصبح ينطق الحرف المجهور « V » واوا لا فاء مجهورة كما يدل رسمه .

والتطور الأخير ، هو الذي أحدثه المسلمون حين قالوا : « أندلس » لا « فندلس » ولا « وندلس » وهو تطور مألوف أيضاً . فالهمزة تأتي أحيانا بدلا من الواو في العربية ، مثل : وُجُوهُ وأُجُوهُ ، جمع وجه .

وقد بقي اسم « الأندلس » الذي أطلقه المسلمون على شبه الجزيرة ، ولم يخرج بخروجهم ، ولكنه قد أصاب شيئا من التطور في لفظه ، وشيئا من التطور كذلك في معناه . أما اللفظ فقد أصبح في اللغة الإسبانية « أندلُثيا » Andaluçia ، بدلا من أندلس . وأما المعنى فقد صار جنوب شبه الجزيرة فقط ، بعد أن كان شبه الجزيرة جميعاً .

والأقاليم التي يشملها اسم « أندلثيا » الآن في إسبانيا هي المريّة ، وغرناطة ،

(١) أو « فندلسيا » .

ومالقة ، وجيَّان ، وقُرطبة ، وإشبيلية ، وقادس ، وأوثبة .^(١)

ولعل من المكمل لهذا الحديث أن نذكر أن بعض المؤرخين القدامى قد أوردوا تعليقات أخرى لتسمية شبه الجزيرة الإيبيرية باسم الأندلس . فمن ذلك ما نقله المقرئ عن ابن سعيد من أن تلك البلاد « سميت بالأندلس ابن طوبال بن يافث ابن نوح لأنه نزلها »^(٢).

وليس يخفى ما في رأى ابن سعيد من تعليل أسطوري أبعد ما يكون عن الحقيقة . ومن المؤرخين العرب القدامى الذين اهتموا إلى التعليل العلمى الصحيح ، أحمد بن محمد الرازى الذى نقل عنه المقرئ قوله « وأول من سكن بالأندلس على قديم الأيام . . . قوم يعرفون بالأندلس معجمة الشين ، بهم سمي المكان ، فعرب فيما بعد بالسين غير المعجمة »^(٣). فهذا تعليل يطابق أحدث التعليقات العلمية المبينة على أسس تاريخية ، وإن كان الرجل قد حسب أن هؤلاء الناس كانوا أول من سكن البلاد .

أما قوله : إن أصلها بالشين فسببه — فى رأى — أن السين أو الحرف S ينطق كثيراً فى اللسان الإيبانى بين السين والشين ، لكن العرب ينطقونها سيناً خالصة . فكان الإيبان كانوا ينطقون الكلمة ذات سين مشربة بالشين ، فلما جاء المسلمون نطقوا سينها واضحة لا أثر للشين فيها .

(١) هذه الأقاليم تسمى بالإسبانية على هذا النحو :

Almeria, Granada, Malaga, Jaen, Cordoba, Sevilla, Cadiz, Huelva.

ويلاحظ أن الحرف J الذى فى أول الكلمة Jaen ينطق خاء ، وهو كذلك دائماً فى اللغة الإسبانية . ويلاحظ أن الحرف Z الذى فى آخر الكلمة Cadiz ينطق ثاء وهو كذلك دائماً فى الإسبانية . كذلك يلاحظ أن الحرفين L و LL فى آخر الكلمة Sevilla ينطق أولهما لا ما ، والثانى ياء .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٦٣ .

(٣) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٦٦ .

وشبيه بالتعليل الأسطوري الذي ذكره ابن سعيد لإطلاق كلمة الأندلس على شبه الجزيرة ، ما ذكره بعض المؤرخين القدامى في سبب إطلاق كلمة إسبانيا على تلك البلاد ؛ فقد ذكر أنها سميت بهذا الاسم لأن عجم رومة قد ملكوها ، وكان ملكهم إشبان بن طيطش ، وباسمه سميت الأندلس إشبانية^(١) . فالصحيح أن الكلمة قد أطلقها الرومان على تلك البلاد ، ولكن لا أخذاً من اسم ملكهم إشبان الذي لا يعرف التاريخ عنه شيئاً ، بل أخذاً من عبارة فينيقية معروفة كان الفينيقيون قد أطلقوها على الشاطئ لإيبري حين نزلوا به .

٢ - شحة جغرافية :

بلاد الأندلس شبه جزيرة تقع في الجنوب الغربي من أوروبا . والمياه تطوف بها من كل جوانبها ، عدا جانباً واحداً هو الشمالى الشرقى ؛ حيث تحدها جبال البرانس^(٢) الفاصلة بينها وبين فرنسا . أما تلك الأمواه التى توشك أن تطوق الأندلس ، فهى مياه البحر الأبيض من الشرق ، ومياه المحيط الأطلسى من الغرب والشمال الغربى . ثم مزيج من مياه البحر والمحيط فى الجنوب حيث مضيق جبل طارق^(٣) ملتقى البحر بالمحيط ، والفاصل الضيق بين شمال إفريقيا وجنوب إسبانيا ، فهذا المضيق يبلغ عرضه فى أضيق مواضعه خمسة عشر كيلو متراً تقريباً ، ولولاها للانصقت إفريقيا من الشمال أوروبا من الجنوب .

(١) المقرئ : نفتح الطيب ، ج ١ ص ٦٧ .

(٢) يسميها العرب أيضاً : البرتات . وهو من غير شك جمع عربى للكلمة الإسبانية Puerto بمعنى منفذ أو مدخل ، وذلك لأن تلك الجبال ذات ممرات تصل بين فرنسا وشبه الجزيرة .

(٣) هذا الاسم أطلق على المضيق بعد أن عبره طارق بن زياد من المغرب إلى الأندلس ، واسمه العربى قبل ذلك بحر الزقاق وكثيراً ما يستعمل حتى بعد الفتح ، ولكن الأوربيين لا يزالون يستعملون اسم جبل طارق لهذا المضيق ، فيقول الإسبان مثلاً Gibraltar .



ويؤلف سطح شبه الجزيرة عناصر أهمها : الهضبة الكبرى التي تسمى « مسينا » Meseta وهي تشغل جزءاً هائلاً من مساحة شبه الجزيرة . وتأتي بعد تلك الهضبة سلاسل جبال توشك أن تطوقها ؛ فن الجنوب تمتد جبال « سييرا مورينا Sierra morena » أي سلسلة الجبال السمراء^(١) . وتفصل تلك الجبال بين الهضبة وسهل جنوبي كبير ينسبط حتى أقصى الجنوب^(٢) . وفي شرق الهضبة تمتد كذلك سلسلة جبال أخرى . وهي الجبال الأيبيرية Sistema ibereco ، وهي التي تفصل بين الهضبة وسهل آخر هو السهل الشرقي ، الذي ينسبط حتى ساحل البحر الأبيض . . وفي شمال الهضبة تعلو جبال أخرى ،

- (١) والعرب يسمونها : الشارات ، وهو جمع عربي محرف لكلمة Sierra الإسبانية بمعنى سلسلة جبال .
 (٢) ترتفع من السهل الجنوبي جبال أخرى تسمى Sierra nevada أي سلسلة الجبال الثلجية ويسمها العرب « شلير الثلج » ولعل كلمة « شلير » تحريف عربي للكلمة الإسبانية Salir بمعنى الخروج ، فكأنهم يرون (بشلير الثلج) مخرج الثلج .

الجبال « القنطبرية Cantabrica ، وهذه الجبال تليها شمالاً بعض الأقاليم السهلية الضيقة . وفي الغرب تنحدر الهضبة حتى تنتهي إلى سهل عمق كبير هو السهل الغربي .

وتجري في الأندلس أنهار عديدة ، أهمها نهر الوادي الكبير ، الذي يسميه الإسبان حتى اليوم بهذا الاسم الذي أطلقه العرب ، ولكن مع تحريف يسير فيقولون : « جواد الكبير Guadalquivir »^(١) . وهذا النهر يروي أكثر أراضي السهل الجنوبي ، ويمر بالمدينتين الأندلسيتين العظيمتين قرطبة وإشبيلية ثم يصب غرباً في المحيط الأطلسي . ثم يلي الوادي الكبير شمالاً نهر وادي يانته ، ويسميه الإسبان كذلك باسمه العربي ، فيقولون « جوادايانا Guadaiana » . ويعد هذا النهر يأتي شمالاً نهر التاجه ، ويسميه الإسبان « التاجه El Tajo »^(٢) ، وهو يمر بوسط الهضبة ، وتقع عليه مدينة طَلَيْطَلَة العظيمة^(٣) .. وبعد كل هذه الأنهار يأتي شمالاً نهر دويره ، الذي يسمى عند العرب أحياناً بالوادي الحوفي ، والذي يطلق عليه الإسبان اسم « دورُ Duero » وهو كسابقيه ينحدر إلى الغرب ويصب في المحيط الأطلسي .

على أن هناك أنهاراً أخرى تسير عكس تلك الأنهار ، حيث تصب شرقاً في البحر الأبيض ، وهي تلك الأنهار التي تروى الشرق والشمال الشرق تقريباً . وأهم تلك الأنهار : نهر إبره Ebro ، الذي يروي إقليماً عظيماً من أقاليم الأندلس ، تبرز بين مدنه ، مدينة سَرَقُسطَة^(٤) .

(١) من خصائص النطق الإسباني صعوبة نطق الواو المجرّدة في أول الكلمة ، ومن هنا أضافوا حرف G قبلها لتيسير النطق .

(٢) من التطورات الصوتية في اللغة الإسبانية اختفاء صوت الجيم المغطاة التي يدل عليها في كثير من اللغات الأوروبية الحرف J ، فهم ينطقون كل ما أصله جيمًا مغطاة أو J أوروبية خاء . هذا وبعض المصادر العربية تكتب الاسم بفتح الجيم ولكن صورة الاسم في اللغة الإسبانية ترجح أن الجيم مضمومة .

(٣) يسميها الإسبان Toledo

(٤) ويقول لها الإسبان Zaragoza . مع ملاحظة أن حرف z ينطق كالتاء العربية لا كالزاي ، وهذا من الظواهر الصوتية التي تختلف فيها الإسبانية عن غيرها من اللغات الأوروبية .

ومن الأنهار الشرقية كذلك الوادى الأبيض ، الذى تطور اسمه على ألسنة الإسبان إلى «جوادا لا بيار» Guadalavivar . وهذا النهر يروى جزءاً كبيراً من شرق الأندلس ويمر بشمال مدينة بننسة ، المدينة الأندلسية العظيمة^(١) .

ومن الأنهار الشرقية التى تلى الوادى الأبيض جنوباً ، نهر شقُر ، ويسميه الإسبان بما يشبه هذا فيقولون : «خوكر» Jucar^(٢) . وعلى هذا النهر تقع جزيرة شقر التى تتصل اتصالاً كبيراً بالأدب الأندلسى بحمال طبيعتها ، وكونها مصدر إلهام لعدد من الشعراء . وهناك بعد ذلك جنوبى هذه الأنهر يجرى نهر شقُورة ، الذى يقال له فى الإسبانية «سجورا» Sigura^(٣) . وهو يخترق مدينة مُرسية^(٤) ويروى قسماً كبيراً من إقليم شرق الأندلس .

وهناك بطبيعة الحال أنهر أصغر من تلك التى ذكرت فى هذا الحديث ، كما أن هناك عيوناً وآباراً كثيرة . وعلى تلك الأنهار والنهيرات والعيون والآبار والأمطار تعتمد الحياة الزراعية فى الأندلس . غير أن الاعتماد أساساً على الأمطار فى منطقة الهضبة الوسطى .

وهكذا نرى أن شبه جزيرة الأندلس ، ليست كما يتصور كثيرون جنة ليس فيها

(١) يقال لها بالإسبانية : Valencia مع ملاحظة أن الحرف c ينطق ثاء لأن بعده الحرف i وهذا من خصائص الإسبانية .

(٢) نص ياقوت فى معجم البلدان على أن الاسم بفتح فسكون (ج ٣ ص ٣٠٧) ولكن النطق الإشباني الذى يضم أول الاسم ربما يرجح أنه كان بالضم فى العربية . ويلاحظ أن الشين العربية قد تطورت أولاً إلى جيم معطشة فى النطق الإشباني القديم ثم صارت خاء مثل كل جيم معطشة أو j فى النطق الإشباني الحديث .

(٣) إذا لاحظنا أن نطق كثير من الإسبان اللين يأتى مشرباً بالشين ، وأن لفرق صوتياً بين القاف والجيم غير المعطشة فى اللغة العامية عادة ، كما يقال فى قال : جال - إذا لاحظنا ذلك تبين أن النطق الإشباني هو النطق العربى لهذه الكلمة تقريباً .

(٤) يسميها الإسبان Murcia . مع ملاحظة نطق الحرف c ثاء .

إلا السهول المنبسطة والحقول الخصبة والحدائق الغناء ؛ فالحق أن هذا تصور شعري حمل عليه ما جاء في نتاج شعراء الطبيعة الأندلسيين ، ممن عاشوا في السهول الأندلسية الممرعة ، ثم صوروا لنا طبيعة تلك الأقاليم فقط ، فظننا أن الأندلس كلها كما وصف هؤلاء الشعراء ، وأخذنا صورة للبلاد كلها مما صور به الشعراء بعض أقاليمها . فالواقع أن بلاد الأندلس سهول وهضاب وجبال وأودية ، فيها الحصب السعيد . وفيها الجذب الشقي ، فيها بقاع تستحم بمياه الأنهار ، وفيها أخرى تتعطش إلى غيث السماء .

ولكن الشيء الذي لاشك فيه ، هو أن أخصب بقاع شبه الجزيرة وأحسنها مناخاً . تلك الأقاليم التي فضل المسلمون الحياة فيها حتى لم يكن مقامهم غيرها إلا قليلاً أو ضرورة . وتلك الأقاليم هي : السهول الجنوبية والشرقية والغربية ، التي تعنى بالخصوبة الوفيرة وتروى من الأنهار العديدة ، وتسعد بالمناخ المعتدل . أما الأقاليم التي تقع ضمن الهضبة الكبرى ، فهي أقل الأقاليم حظاً من كرم الطبيعة وحسن المناخ . ويكفي أن نعلم أن تلك الأقاليم تتألف أكثر ما تتألف من أرض قليلة الخصوبة ، وكثير منها غير صالح للزراعة ، والصالح فيها يروى غالباً بمياه الأمطار . التي تجود حيناً وتبخل أحياناً . ثم إن المناخ في تلك الأقاليم أقرب إلى القارية منه إلى الاعتدال ، فهو في الشتاء شديد البرد كثير العواصف متساقط الثلج ، وهو في الصيف شديد الحرارة متوهج المهاجرة .

ومن هنا نتبين أن شبه الجزيرة الأندلسية مختلفة الطبيعة من إقليم إلى آخر ؛ وذلك لسعة رقعة البلاد وامتدادها ، ولاتصالها من الشمال بأوروبا ومن الجنوب بإفريقيا ، هذا بالإضافة إلى التفاوت الشاسع في تضاريسها ، من جبال إلى سهول ، ومن هضاب تعرفها الرمال إلى شواطئ تغسلها البحار . وقد جعل كل ذلك من شبه الجزيرة الأندلسية ، موطناً لثنى المناخات ومختلف الأجواء ؛ فبينما تغلب طبيعة أوروبا في الشمال ، تغلب طبيعة إفريقيا في الجنوب ، وبينما يماثل الإنسان غيره من سكان أوروبا في جهة ، يشابه

مجاوريه من سكان شمال إفريقيا في جهة أخرى . وليس ذلك بغريب بعد أن عرفنا أنه لا فاصل بين الشماليين ومجاورهم الفرنسيين إلا جبال البرانس ، وأنه لا حاجز بين الجنوبيين ومجاورهم المغاربة إلا مضيق جبل طارق .

وكما تختلف الأجواء والطبائع في بلاد الأندلس ، تختلف كذلك الحاصلات حتى يمكن أن يقال : إن أكثر الحاصلات التي تعرف في مناطق العالم المختلفة تجنى في الأندلس ، لأن هناك من الأجواء ما يصلح لكل المزروعات تقريباً . على أن أكثر حاصلات البلاد ، هي تلك التي تجود في حوض البحر الأبيض المتوسط ؛ فهناك يكثر القمح والشعير والأرز والبقول ، وتجود الفاكهة وخاصة الموالح والكروم ؛ وهناك أيضاً يكثر الزيتون ، الذي عليه وعلى الموالح والأرز والكروم يعتمد الدخل القوي أعظم اعتماد .

وببلاد الأندلس بعد هذا غنية بالمناجم والمزاعي والمرافئ البحرية ، وهي بهذا كله تمثل - كما يقول كثيرون - قطاعاً كاملاً من العالم بطبائعه المختلفة وأجوائه المتعددة وحاصلاته المتباينة .

٣ - إسبانيا قبل المسلمين :

يُعتبر الإيبيريون Los Iberos من أقدم من عُرف من سكان إسبانيا ، وقد اختلط بهم قديماً من يسمون بالسليتيين Los Celtas ، فنشأ من هذا الاختلاط الشعب المسمى بالسليتي الإيبيري Celtiberos ؛ وذلك الشعب هو أصل الشعب الإسباني (١) الذي

(١) يضيف بعض الباحثين إلى هؤلاء عنصراً ثالثاً يسمى Los Tartisios وكانت لهؤلاء حضارة قديمة في جنوب شبه الجزيرة . وكان مركز تلك الحضارة مدينة Tartisios قرب Jerez .

ويقال إن الإيبيريين إفريقيون عبروا البحر إلى شبه الجزيرة . وأن السليتيين أوريبيون عبروا جبال البرانس إلى شبه الجزيرة . وأما الترتيسوس فيقال إنهم أفريقيون ويقال إنهم آسيويون .

راجع : Antonio Ballestros : Sintesis de Historia de Espana, pp. 10 ff.

وانظر أيضاً : Aguado Bleye, pp. 153 ff.

أسهمت في تكوينه عناصر أخرى على مر التاريخ .

فقد اهتدى الفينيقيون إلى شبه الجزيرة الإيبيرية ، فنزلوا بها وتبادلوا التجارة مع أهلها ، وأغرتهم خيراتها بالإقامة في بعض أقاليمها ، وخاصة في الجنوب حيث أسسوا مدناً لأيزال بعضها قائماً إلى اليوم ، مثل مدينة قادس Cadiz ، وكان ذلك في القرن الحادى عشر قبل الميلاد (١) .

ثم وفد الإغريق على شبه الجزيرة ، حول القرن السابع قبل الميلاد ، وأقاموا كذلك في بعض جهاتها ، وخاصة الجهات الشرقية ، وأنشأوا أيضاً من المدن ما بقى بعضه حتى اليوم ، كمدينة برشلونه Barcelona (٢) .

وفي القرن الخامس قبل الميلاد ، نزل القرطاجنيون شبه جزيرة إيبيريا ، وأسسوا بها مدناً جديدة ، مثل مدينة قرطاجنة Cartagena التي سموها باسم دولتهم في شمال إفريقيا . ثم بسط الرومان نفوذهم على شبه الجزيرة حول منتصف القرن الثاني قبل الميلاد (٣) حين تغلبوا على دولة قرطاجنة وورثوا ملكها . ومنذ ذلك الحين أصبحت شبه الجزيرة الإيبيرية ولاية رومانية . وقد صيغ الحكم الرومانى تلك البلاد بصبغته التي ظلت أهم خصائصها حتى الفتح الإسلامى برغم أن الرومان لم يكونوا حكام إسبانيا حين دخلها المتسلمون . وأهم آثار الحكم الرومانى التي ظلت حتى الفتح الإسلامى : اللغة الرومانية والدين المسيحى .

Aguado Bleve, p. 154.

(١)

(٢) المراد بالإغريق إغريق آسيا الصغرى المسمون Focensa نسبة إلى Focca راجع المصدر السابق ص ١١٥ وما بعدها . وراجع أيضاً :

Antonio Ballestros : Síntesis de Historia de Espana, pp. 15 — 16.

(٣) سنة ١٣٤ ق . م .

وفي أوائل القرن الخامس الميلادي^(١)، استقره الوندلس في جنوب شبه الجزيرة حين أغارت تلك القبائل الجرمانية على ممتلكات الدولة الرومانية ، وقد ظل هؤلاء Los Vandalos حيناً في جنوب شبه الجزيرة ، ثم أجلاهم عنها القوط^(٢) . وهؤلاء كسابقيهم ، بعض تلك القبائل الجرمانية الهمجية التي كانت تغير على ممتلكات الرومان في ذلك الحين . وقد سيطر القوط Los visigodos على شبه الجزيرة تقريباً ، وأسسوا ملكاً كبيراً عاصمته طليطلة Toledo ، وظل ملكهم حتى كان الفتح الإسلامي سنة ٧١١ م .

وكان هؤلاء القوط قد اعتنقوا المسيحية التي سبقهم إلى إسبانيا منذ العهد الروماني . كذلك كانت اللغة السائدة في العهد القوطي هي اللغة الرومانية التي سبقت القوط إلى السيطرة على شبه الجزيرة ودخلتها بدخول الرومان .

وقد سار القوط أول الأمر سيرة حسنة في إسبانيا ، ثم ما لبثوا أن أساءوا الحكم ، فأساوا إلى أنفسهم وإلى الإسبان جميعاً ؛ ذلك أنهم أدخلوا إلى المملكات وتركوا الشعب نهياً للكلام ، فاستأثر الأشراف ورجال الدين بالحرية والسعادة ، وآثروا العاملين بالعبودية والشقاء . وقد أدى كل ذلك إلى كراهية الشعب للحكام ورجال الدين ، وتربصهم بهؤلاء وهؤلاء .

وقد ضاعف الحالة سوءاً ، كثرة المنازعات التي كانت تحدث بين زعماء القوط على العرش ، فقد كانت تلك المنازعات بمثابة الوقود يُلقي على نار الثورة ، فنشب حيناً بعد حين ، وكانت هذه الخلافات بين الشعب وحكامه من جهة ، وبين الحكام أنفسهم من جهة أخرى ، تمز العرش القوطي هزاً عنيفاً ، بل كانت ترقصه على حافة بركان .

(١) سنة ٤٠٦ م .

(٢) يقال إن الوندلس رحلوا إلى أفريقيا سنة ٤٢٩ م .

راجع : Aguado Bicye, p. 339 .

فهناك الفشل السياسى والضعف الحربى والتفكك الاجتماعى والظلم الطبقي ، وقد تجمعت تلك العوامل فى أواخر العهد القوطى كأنها قطع الليل المظلم ، الذى تتطلع فيه العيون متلهفة إلى فجر جديد^(١) .

٤ - المسلمون فى إسبانيا :

كانت جيوش المسلمين قد بسطت سلطانها على شمال إفريقيا ، واستقرت بتلك العدو التى لا يفصلها عن الأندلس إلا مضيق جبل طارق . وكان ذلك بعد ضحايا عديدين من الجنود والقواد المسلمين ، وبعد جهاد طويل قد استمر منذ عهد عمر رضى الله عنه ، إلى عهد الوليد بن عبد الملك . وكان قائده على المغرب موسى بن نصير ، صاحب فضل كبير فى تثبيت قدم الإسلام فى شمال إفريقيا ، ونشر رأيه حتى المحيط الأطلسى .

ولاشك أن ذلك القائد الظافر كان يتطلع فى شوق إلى تلك البلاد الواقعة على الضفة الأخرى من المضيق . ولكنه فيما يبدو كان يخشى أن يغامر بجيش المسلمين فى تلك البلاد؛ لأن مصيره فيها كان مخفوقاً بأخطار ، أقلها ذلك المجهول الذى لا يلتصق فى أفقه نجم .

ولكن خشية موسى سرعان ما عادت أكثر من الأمن ، وأصبح تردده فى فتح تلك البلاد، تصميماً على اقتحامها بجيوش المسلمين. كان ذلك حينما تقدم إليه يوليان Julian حاكم سبته ، وعرض عليه تسليم سبته أولاً ثم المساعدة فى فتح إسبانيا ثانياً . وكانت سبته - على الأرجح - ولاية إفريقية تابعة للقوط يحكمها من قبلهم حاكم^(٢) ، وكانت إلى ذلك

Dozy : Historia de los musulmanes de Espana, pp. 318 ff.

(١) انظر :

(٢) يرى بعض الباحثين أن سبته كانت مستقلة ، ويرى البعض أن حاكمها كان إفريقياً من قبيلة

A. Gonzalez Palencia : Historia de la Espana musulmana, p. 9.

غمارة . انظر :

حصناً منيعاً من الحصون الإفريقية التي لم يخضعها المسلمون بعد ، كما كانت نفراً له قيمته على مضيق جبل طارق ، يمكن أن يستخدم في العبور إلى جنوب إسبانيا . أما لماذا عرض يوليان هذا العرض السخي على موسى ؛ فسؤال للمؤرخين في الإجابة عنه أقوال عديدة^(١) ترجع في جملتها إلى وجود ضغائن بين يوليان هذا وبين ملك القوط حينئذ ، المسمى رُذريق Rodrigo . ومهما يكن من أمر فقد رحب موسى بهذا العرض وأرسل أحد محاربيه واسمه طريف على رأس قوة صغيرة^(٢) عبرت المضيق على سفن قدمها حاكم سبتة ، ونزلت في جنوب شبه الجزيرة ، بمكان لا يزال يحمل اسم القائد المسلم إلى اليوم ، حيث يسمى جزيرة طريف Terifa . ثم عادت تلك السرية إلى شمال إفريقيا بما طمأن موسى وزاد رغبته في فتح تلك البلاد . وكان عبور هذه السرية إلى جنوب إسبانيا سنة ٥٩١ هـ - ٧١٠ م .

وفي السنة التالية (٩٢ هـ - ٧١١ م) أرسل موسى جيشاً كبيراً^(٣) بقيادة طارق ابن زياد لفتح هذه البلاد . وقد عبر جيش طارق هذا المضيق الذي سمي باسمه فيما بعد ، ونزل من جنوب شبه الجزيرة في هذا المكان الذي سمي كذلك بجبل طارق . وكان عبور هذا الجيش على سفن لحاكم سبتة ، كما كان يرافقه أدلاء من قبل هذا الحاكم .

وقد هزم طارق كل الحاميات التي تعرضت له بعد نزوله بالشاطئ الإسباني . ووصل نبأ طارق وجيشه إلى ملك القوط الذي كان في شمال شبه الجزيرة يخضع بعض

(١) من تلك الأقوال : أن ابنة يوليان كانت تربي كسائر بنات الأمراء في قصر الملك فاستحسنها واعتدى عليها . ومن الأقوال أيضاً : أن يوليان كان مالياً للأسرة المالكة السابقة التي انتزع لودريك الملك منها وهي أسرة غيطشة Vitiza

(٢) كانت هذه القوة تتألف من ٥٠٠ مقاتل منهم ١٠٠ فارس . وقد عبرت على أربع سفن . انظر : أخبار مجموعة ص ٦٤٥ .

(٣) كان عدد هذا الجيش ٧٠٠٠ وأكثره من القبائل الأفريقية . ثم زيد الجيش إلى ١٢,٠٠٠ قبل أن يخوض طارق المعركة الفاصلة مع جيش القوط انظر : أخبار مجموعة ص ٦٤٦ .

التائرين ، فأسرع بالعودة إلى طليطلة العاصمة ، واستمد بجيش كبير للقاء الفاتح المسلم . ولم ينتظر حتى تدخل عليه جيوش المسلمين عاصمته طليطلة ، بل اتجه بجيشه جنوباً للقاء طارق وجيشه .

وفي سهول شَرِيش قرب مدينة قادس ، وعزد وادي لكَّة^(١) Guadalete التقى الجيشان في معركة كبيرة انتهت بانتصار المسلمين وتشتت جيش القوط ، برغم تفوقه في العدد والعتد على جيش المسلمين^(٢) . وبعد هذه المعركة الرئيسية الحاسمة أرسل طارق بعض محاربيه لفتح قرطبة وغرناطة ومالقة وغيرها من المدن والأقاليم ، ثم اتجه بأكثر الجيش إلى العاصمة القوطية طليطلة ، فدخلها وأسس دولة المسلمين في الأندلس على أنقاض دولة القوط .

وفي العام التالي (٩٣ هـ - ٧١٢ م) عبر موسى بن نصير إلى الأندلس بجيش جديد ، ونزل في مكان آخر هو الذي يسمى الآن بالجزيرة الخضراء Algeciras . ثم سار في طريق آخر غير الذي سلكه طارق ، وأخضع في طريقه عدداً من المدن والأقاليم التي لم تكن

(١) يسميه المؤرخ الأندلسي ابن القوطية . بوادي بكة ، وكل أية حال فهو نهر يصب في خليج قادس . ويقول دوزي : إنه النهر الذي يسمى الآن Río salado . عل أن ليفي بروفنسال يرى أن المعركة دارت على ضفة البحيرة المسماة Janda التي تتصل بنهر Barbate انظر :

Levi Provençal : La Espana musulmana, p. 13.

وانظر أيضاً : Sanchez Albornoz : La Espana musulmana, p. 36, vol. I.

وانظر كذلك : Dozi : Historia, p. 24, vol. I.

وانظر : من المصادر العربية : ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧ . وأخبار مجموعة ص ٨ .

وابن عذاري ، البيان المغرب ج ٢ ص ١١ .

(٢) قيل إن عدد جيش لذريق كان ١٠٠,٠٠٠ أما لذريق فقليل إنه قتل في المعركة ، وقيل فر ببعض

قواته فقتل في معركة أخرى . انظر أخبار مجموعة ص ٩ .

وانظر كذلك : Palencia : Historia de la Espana musulmana, p. 10.

قد خضعت بعد ، مثل شدونة^(١) وإشبيلية وماردة^(٢) ، وبعد ذلك وصل إلى طليطلة^(٣)

ويقال : إن موسى عنف مولاه طارق بن زياد ولامه كثيراً على توغله في البلاد توغلا كان من الممكن أن يجلب الشر على جيوش المسلمين ، ويقال أيضاً : إنه لم يعضه فحسب ، وإنما قيده وضربه وكاد يقتله . وللمؤرخين في تصرف موسى إزاء طارق تفسيرات ، بعضها يتهم موسى بالغيرة من طارق أو الحقد عليه . على أية حال فبعد هدوء تلك العاصفة بين القائدين العظمين سارا بالجيوش الإسلامية مخضعين كثيراً من أقاليم حوض نهر إبيره مثل إقليم سرقسطة . ثم تقاسما إخضاع بعض الأقاليم الشمالية ، مثل سوريا^(٤) وليون وبعض حصون أستورياس وجلسية^(٥) .

وفي غمرة الانتصار^(٦) استدعى موسى بن نصير إلى دمشق للقاء الخليفة على أن يخون في صحبته طارق . فأوقف موسى الزحف ، وعاد إلى الجنوب ، وأصلح من شئون الأندلس ما استطاع ، وولى ابنه عبد العزيز على البلاد ، وترك شبه الجزيرة واتجه مع طارق إلى دمشق سنة ٩٥ هـ - ٧١٤ م .

وهكذا دخل المسلمون شبه الجزيرة الإيبيرية ، وكانت لهم فيها دولة بل دول .

(١) Sidonia

(٢) Merida

(٣) كان الجيش الذي عبر به موسى يتألف في أغلبيته من العرب . وكان عدده ٨,٠٠٠ س . ع .

انظر : Levi : Espana musulmana, pp. 15 ff.

وانظر أيضاً : Palencia : Historia, p. 19.

وانظر كذلك أخبار مجموعة من ١٥ .

(٤) اسم إقليم في إسبانيا ، وهم يسمون سوريا التي هي من الأمة العربية (سوريا) Siria

(٥) Galicia

(٦) لم يتأكد ليبي بروفنسال من أن موسى عبر جبال البرانس إلى فرنسا . ولكن الأستاذ محمد عبد الله عنان

يذكر أن موسى عبرها ووصل إلى بربوتة أو إلى ليون في فرنسا .

انظر : Levi, p. 18 . ومحمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس من ٥٠ .

ومرت عليهم أحداث تاريخ طويل . وتتابعت على البلاد أشكال من الحكم وصنوف من الحاكين . وليس هنا محل سرد شيء من ذلك أو تفصيل القول فيه . وحسبنا في هذا المقام أن نشير إلى أن هذا التاريخ الطويل الذي قارب ثمانية قرون ، يقسم عادة إلى عصور هي :

أولاً : عصر الولاة ، وهو ذلك العصر الذي يبدأ بالفتح الإسلامي سنة ٨٩٣ - ٧١٢ م وينتهي بقيام دولة بني أمية في الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨ هـ - ٧٥٥ م .

ويسمى هذا العصر عصر الولاة ؛ لكون الأندلس كانت تحكم فيه بوساطة وال يعينه خليفة دمشق وأحياناً يعينه حاكم شمال إفريقيا .

ثانياً : العصر الأموي ، ويبدأ بتأسيس عبد الرحمن الداخل لدولة بني أمية في الأندلس ، تلك الدولة التي تبلغ ذروة مجدها في عهد عبد الرحمن الناصر الذي يجعل منها خلافة عظيمة . وينتهي هذا العصر بانتهاء ملك بني أمية هناك ، بعد سلسلة من الخلفاء العاجزين ، واختيار زعماء قرطبة لنوع من الحكم الجمهوري سنة ٤٢٢ هـ - ١٠٣١ م .

ثالثاً : عصر ملوك الطوائف ، ويبدأ بسقوط الدولة الأموية وقيام عدة ممالك مستقلة ، تقسمت الأندلس معها إلى طوائف ، وعلى كل طائفة مُلك . وينتهي هذا العصر باستيلاء المرابطين على الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين سنة ٤٩٣ هـ - ١٠٩١ م .

رابعاً : عصر المرابطين ، ويبدأ باستيلاء ابن تاشفين وجيوشه الإفريقية على الأندلس ، وينتهي بحلول الموحدین محل هؤلاء المرابطين في حكم إسبانيا الإسلامية سنة ٥٤١ هـ - ١١٤٦ م .

خامساً : عصر الموحدين : ويبدأ بحكم هؤلاء الإفريقيين للأندلس ، وينتهي

يسقوط دولتهم ، وانتزاع المسيحيين الإسبان للكثرة الغالبة من الأقاليم التي كانت في أيدي المسلمين ، وحصر الدولة الإسلامية الأندلسية في جزء جنوبي صغير هو مملكة غرناطة وذلك نحو سنة ٦٦٨ هـ - ١٢٦٩ م .

سادساً : العصر الغرناطي . ويبدأ بتأسيس مملكة غرناطة على يد ابن الأحمر ، وينتهي بتسليم هذه المدينة الإسلامية إلى الإسبان ، سنة ٨٩٨ هـ - ١٤٩٢ م .

على أن بعض الباحثين يولد من تلك العصور عصرين آخرين ، فيجعل فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين عصرًا ؛ ويجعل كذلك فترة ما بين عصر الموحدين والعصر الغرناطي عصرًا آخر ، ويسمى الأول عصر الطوائف الثاني ، ويسمى الآخر عصر الطوائف الثالث (١) . كما أن البعض يضم الفترات الأولى من الدولة الأموية ؛ وهي الفترات التي سبقت خلافة عبد الرحمن الناصر ، إلى فترة ما بعد الفتح الإسلامي ، وهي فترة الولاة ، ويسمى كل ذلك ، عصر الإمارة ويعني بذلك كل ما قبل الخلافة ، أو عصر الإماراتين ، ويعني بذلك إمارة غير الأمويين ثم إمارة الأمويين .

ومهما يكن من أمر فليس يعنينا من تلك العصور واختلاف أسماؤها شيء ، وإنما الذي يعنينا هو تلك المؤثرات السياسية والاجتماعية والثقافية التي تتصل بالأدب . لهذا لن نرتبط بهذا التقسيم تمام الارتباط ، لأن اختلاف المؤثرات الأدبية قد يكون أكثر خلال عصر سياسي واحد ، على حين لا يوجد كبير اختلاف بين عصرين سياسيين آخرين . ومن هنا سنهتدي فقط بهذه التقسيمات السياسية في درسا للعصور الأدبية ، على أن نقسم العصر الواحد إلى فترات إن كان ذلك في صالح الدرس الأدبي ، وعلى أن نضم عصرين إن كان ذلك في صالح الدرس الأدبي أيضاً . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في غير هذا المكان .

(١) وذلك لوجود عصر أول يسمى عصر ملوك الطوائف هو الذي جاء على أعقاب سقوط الحكم الأموي

في الأندلس . ومن ساروا على هذا التقسيم : Al Bornoz : La Espana musulmana, vol. 2, p. 327. الأدب الأندلسي

٥ - المجتمع الأندلسي :

(أ) العناصر البشرية في الأندلس :

كان المجتمع الأندلسي مكوناً من عناصر شتى ، فقد كان فيه أهل البلاد الأصليون ، وفيه الوافدون من عرب وبربر ، ثم فيه الموالي المنسوبون إلى أقطار شرقية مختلفة ، والمماليك المحلويون من بلاد غربية عديدة .

أما أهل البلاد الأصليون ، فهم المسمون بعجم الأندلس ، وكانوا في أكثريتهم الغالبة من الإسبان .

وأما الوافدون ، فكان منهم العرب الآتون من المشرق ، وقد سمي أوائلهم - وهم من أتوا مع موسى بن نصير - باسم البلديين ، كما سمي من جاءوا بعدهم باسم الشاميين^(١) .

كذلك كان من الوافدين ، البربر الآتون من شمال إفريقيا ، والذين كان أوائلهم يؤلفون معظم جيش طارق بن زياد^(٢) .

وأما الموالي ، فقد أتوا في ركاب العرب منذ عبروا إلى الأندلس ، إذ كانوا مرتبطين بهم تابعين لهم ، حتى لقد نسيت بمرور الزمن أصول كثير منهم ، وعدوا فعلاً من القبائل التي تربطهم بها روابط الولاء .

وأما المماليك ، فكانوا يجلبون من عدة بقاع أوربية ، وخاصة من المناطق السلافية ، وكان تجار الرقيق من الجرمان وأشباههم يسبون هؤلاء السلافيين صغاراً ثم يبيعونهم

(١) انظر في هذه التسميات المصادر التاريخية الأندلسية المتقدمة ، مثل تاريخ افتتاح الأندلس لابن

القطيبي ، ومثل أخبار مجموعة

(٢) انظر أخبار مجموعة ص ٦ .

في أسواق إسبانيا . وقد عرف هذا النوع من الرقيق في الأندلس باسم الصقالبة ، ثم علب الاسم على كل الرقيق حتى ولو لم يكن سلافيًا (١) .

وقد بدأ هؤلاء الصقالبة يظهرن في المجتمع الأندلسي كعنصر منذ أيام عبد الرحمن الداخل .

وليس معنى ما تقدم أن المجتمع الأندلسي كان مجتمعاً مهلهلاً بسبب اختلاف عناصره البشرية ، فالحق أنه برغم تعدد العناصر بين سكان الأندلس ، كانت الروابط القوية تشد بعضهم إلى بعض في أغلب الأحيان ، وتطبعهم بالطابع الأندلسي المميز . فقد كانت هناك دائماً البيئة المشتركة والثقافة المشتركة ، وقد كانت هناك غالباً الحكومة الموحدة والسياسة الموحدة ، ثم كانت هناك بعد ذلك الحضارة الأندلسية الرائعة ، التي تصبغ جميع العناصر بصبغها الواضحة ، تلك الصبغة التي لا يكاد يفرق فيها بربري الأصل عن عربي الدم ، بل لا يكاد يميز معها إسباني الحدود من عربي الآباء .

على أن أهم ما جعل الوحدة البشرية في المجتمع الأندلسي ذات قوة تفوق ما كان من تعدد الأصول ، كون العنصر البشري الذي يمثل أكثر سكان الأندلس ، والذي يعتبر أبرز عناصر المجتمع ، هو العنصر العربي الممتزج على مر السنين بالعنصر الإسباني ، والمؤلف من هذا الامتزاج من هم أجدر سكان إسبانيا الإسلامية باسم الأندلسيين .

فلقد وفد العرب على إسبانيا في موجات هائلة . وانتشروا في أقاليمها المختلفة انتشاراً متغلغلاً ، وكانوا يمثلون أكثر القبائل العربية ، العدنانية منها والقحطانية (٢) .

وكان هؤلاء العرب قد وفد أكثرهم على إسبانيا في شكل جنود لا في شكل أسر .

(١) انظر : الصقالبة في إسبانيا لذكور مختار العبادي .

(٢) انظر تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٢٠ وفتح الطيب المقرئ ج ١ ص ١٣٦ . روا بعدها وجمهرة أنساب العرب لابن حزم في كثير من فصوله .

أى أنهم لم يأتوا في أغلب الأحيان بنسأهم وزوجاتهم ، حتى يمكنهم الانعزال بشرياً عن سكان البلاد الأصليين ، وإنما كانوا بجالتهم التي جاءوا عليها مضطرين إلى الاتصال الأسرى بسكان شبه الجزيرة ، حتى يكونوا بالزواج من نساء البلاد أسرهم الجديدة التي ستربطهم بالوطن الجديد وتبقى نوعهم به .

وقد كان هؤلاء العرب الوافدون في موجات ، من الكثرة بحيث يعتبر امتزاجهم بالإسبان عن طريق المصاهرة ، أمراً كافياً لجعل سلائل هؤلاء وهؤلاء أبرز عناصر المجتمع الأندلسي وأهم مكوناته البشرية .

فتلا كان جيش موسى بن نصير مؤلفاً - فيما تقول بعض الروايات - من ثمانية عشر ألفاً من العرب ^(١) وكان جنود الشام الوافدون مع بلسج بن بشر في عهد الولاة ، عشرة آلاف ، منهم ثمانية آلاف من بيوت العرب ، وألفان من الموالي ^(٢) . وكان جنود أبي الخطار الكلبي الوافدون في عهد الولاة أيضاً من العرب ، ولا بد أن يكون عددهم كبيراً حتى يصلحوا للمهمة التي قدموا من أجلها ، وهي فض النزاع بين البلديين والشاميين ، وإقرار الأمن والنام في الأندلس ^(٣) . كذلك كانت موجة الأمويين وأنصارهم من أتوا خلال فترة تأسيس الإمارة الأموية بالأندلس عربية ، كما كانت ذات عدد لا يتصور إلا كبيراً ^(٤) ، نظراً لما هو معروف من اضطهاد العباسيين للأمويين وأنصارهم بالمشرق ، ولما هو معروف كذلك من ترحيب عبد الرحمن الداخل وأبنائه ببنى أمية الوافدين عليهم ، وبكل اللاتنين بهم من عرب المشرق عموماً .

(١) انظر Levi : Espana musulmana, pp. 15 ff. وأخبار مجموعة ١٥ .

(٢) يسمى جنود بلج الطالعة الأولى .

(٣) يسمى جنود أبي الخطار بالطلعة الثانية ، وتسميهم طالعة كما سمي جنود بلج تؤكد ما نتصوره

من كثرتهم ، انظر تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٥ ، ١٩ .

(٤) انظر نفع الطيب ج ٢ ص ٧٣ .

وهكذا نرى أن المجتمع الأندلسي كان متعدد العناصر والأصول ، ولكنه كان مع ذلك متحد الطابع في جملته ، وخاصة حين برز أهم عناصره البشرية ، وهو العنصر الذي تبرز فيه الدماء العربية بالدماء الإسبانية والذي يؤلف الأندلسيين الجديريين بهذه التسمية .

(ب) أصل الأندلسيين :

على أن الباحثين يختلفون في أصل الأندلسيين ، ويتعارضون أشد التعارض في اختيار الجنس البشري الذي يندرجون تحته . فبعضهم — والشرقيون منهم بصفة خاصة — يرون أن هؤلاء الأندلسيين عرب ، قد رحلوا من مواطن العرب في المشرق ، وعاشوا في الأندلس محافظين على عروبتهم ، متمسكين بأنسابهم وسلاسل قبائلهم ^(١) . والبعض الآخر — والمستشرقون الإسبان بصفة خاصة — يرون أن الأندلسيين ليسوا إلا إسباناً مسلمين ، فهم ليسوا عرباً وليسوا شرقيين ، وإنما هم إسبان وغربيون ، دينهم الإسلام ولغتهم العربية ^(٢) .

والسبب في تمسك الباحثين الشرقيين بعروبة الأندلسيين كالسبب في تمسك الباحثين الغربيين بإسبانية هؤلاء الأندلسيين ، فكلا الفريقين يعترضهم ويحاول أن يكسب حضارتهم إلى حضارته ، ويضيف علمهم إلى علمه ، ويعد أدبهم من تراث أدبه . وربما كانت وجهة نظر الباحثين الشرقيين أقدم وجهى النظر ^(٣) ، فالمسلمون منذ أقدم عصور الأندلس يعتبرون الأندلسيين عرباً منهم ، تراثهم تراثهم وأدبهم أدبهم وحضارتهم حضارتهم ، وكل الذى كانوا يخلصون به الأندلسيين أن يعلمهم أحياناً أهل المغرب ،

(١) انظر مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ج ٢ ص ٢٦٧ وما بعدها .

Julian Ribera : Disertaciones y opusculos, vol. I, pp. 12 ff.

(٢)

(٣) انظر المقري : نفع الطيب ج ١ ص ٣٦ وابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٣٥ .

على اعتبار أن المغرب الإسلامى يشمل شمال إفريقيا والأندلس ويقابل المشرق الذى يشمل الحجاز والشام والعراق ومصر .

وفكرة الشرقيين قديماً وحديثاً فى اعتبار الأندلسيين عرباً ، تقوم على هذا التقليد العربى الذى ينسب الولد إلى أبيه ، فإدام آباء الأندلسيين كانوا عرباً فى الأصل ، فالأبناء والأحفاد وكل الأجيال عرب كذلك ، ينتمون كأبائهم إلى عدنان وقحطان .

أما فكرة الغربيين وخاصة الإسبان ، فى اعتبار الأندلسيين إسباناً مسلمين ، فقد نشأت أخيراً وبدأ الاتجاه إليها فى القرن الماضى تقريباً حينما انحسرت موجة الكراهية التى كانت تغمر قلوب الأوربيين - وخاصة الإسبان - ضد مسلمى الأندلس ؛ فقد كانوا قديماً يعتبرونهم غزاة وفاتحين ومحتلين ، ومن هنا جاءت محاربتهم ومطاردتهم وإخراجهم .

ثم ظهر بعض الباحثين المنصفين ، الذين أشادوا بفضل المسلمين على أوروبا كلها لا على إسبانيا وحدها ، وبينوا ما كان لهؤلاء المسلمين من فضل على العلم والأدب والحضارة الأوربية جميعاً ؛ وانتقدوا لذلك تلك المعاملة القاسية التى لقيها هؤلاء المسلمون على أيدي المسيحيين ، وأخذت الأبحاث تتابع فى بيان ما لمسلمى إسبانيا من التأثير فى الفلسفات والآداب والفنون الأوربية على وجه العموم (١) .

(٢) من أقدم الأبحاث التى نهدت إلى فضل الأندلسيين على الحضارة الأوربية بحث القس خوان أندريس Juan Andres ، كُتبه فى القرن الثامن عشر عن أثر الثقافة الأندلسية فى الثقافة الأوربية . وكان هذا القس يسوعياً ، طرد من إسبانيا وفصل من الجماعة .

ومن أعظم الأبحاث فى هذا الشأن ، أبحاث المستشرق الإسباني Asin Palacios عن الفلسفة الإسلامية وعلاقتها بالفلسفة الأوربية . ثم بحه الجليل عن تأثر دانتى بالإسلام فى الكوميديا الإلهية . وكذلك من أمتع الأبحاث فى تأثير الأندلسيين ، أبحاث المستشرق الإسباني Julian Ribera عن تأثير الشعر الأندلسى فى الشعر الأوروبى ، والموسيقى الأندلسية فى موسيقى الإسبان إلخ .

وأخيراً تبني مستشرقو الإسبان وعلى رأسهم العلامة « خوليان ريبيرا » Julian Ribera فكرة الأصل الإسباني لمسلمي الأندلس . ويعتبر « خوليان ريبيرا » أول من حاول إثبات هذه النظرية والتدليل عليها من الوجهة العلمية ؛ فهو يرى أن العرب الذين دخلوا شبه الجزيرة أيام الفتح إنما دخلوا - كما هو معروف - على هيئة جنود ، ولم ينتقلوا إليها كأسر ، وكان لابد لهؤلاء المحاربين من أن يكونوا البيوت وينجبوا النسل ، وكانت الإسبانيات الجانب الآخر في تكوين هذه الأسر وإنجاب ذلك النسل . وقد أقبل على هذا الزواج المختلط أول أمير عربي ولي أمر الأندلس بعد الفتح ، وهو عبد العزيز بن موسى بن نصير كما أقبل عليه غيره من العرب ، حيث شرع لهم أمراؤهم سنة الزواج بالإسبانيات حتى لقد ثبت أن جميع أمراء وخلفاء الأسرة الأموية في الأندلس كانوا أبناء لغير عربيات . وإذا كان الولد - في الحقيقة - ابناً لأبيه كما هو ابن لأمه ، وإذا كانت خصائص الوراثة يأخذها الوليد عن أسرة أمه كما يأخذها عن أسرة أبيه ، إذا كان ذلك أمكن القول بأن العرب الداخلين قد ذابوا في الجنس الإسباني حتى لم يعد للواحد منهم سوى قطرات قليلة من الدم العربي تمتزج بدمه الإسباني الذي يكاد يكون خالصاً .

ويجري الأستاذ « ريبيرا » تجربة على الأسرة الأموية التي حكمت في الأندلس فيقول ما خلاصته : إن عبد الرحمن الداخل كان يحمل فقط نصف دم عربي ، لأنه كان من أم غير عربية ، وكذلك ابنه هشام لا يحمل إلا ربع دم عربي لأن أمه كانت أيضاً غير عربية . وهكذا تتناقص نسبة الدم العربي كلما مضينا من أمير إلى آخر ، بينما تتضاعف نسبة الدم الأجنبي ؛ فالحكم ابن هشام ليس له من الدم العربي إلا الثمن ، وعبد الرحمن الأوسط ، ليس له إلا جزءاً من ستة عشر جزءاً ، والأمير محمد ليس له إلا جزء من اثنين وثلاثين جزءاً ، والمنذر بن محمد ليس له إلا جزء من أربعة وستين جزءاً ، وكذلك أخوه عبد الله . ثم يأتي بعدها محمد بن عبد الله (وهو لم يحكم) وفي دمانه جزء من مائة وثمانية وعشرين جزءاً . ثم يأتي بعد ذلك عبد الرحمن الثالث الملقب

بالناصر ، وليس له من الدم العربي إلا جزء من مائتين وستة وخمسين جزءاً . أما ابنه الحكم الثاني ، فليس له تبعاً لذلك إلا جزء من خمسمائة واثني عشر جزءاً . وأخيراً يأتي هشام الثاني فلا يكون له من الدم العربي إلا جزء من ألف وأربعة وعشرين جزءاً ^(١) .

ولسنا ننكر الدافع الكريم الذي حمل الأستاذ « ريبيرا » على محاولة إثبات أن الأندلسيين إسبان مسلمون ؛ فهو يعتز بالأندلسيين ويحاول كسب الحضارة الأندلسية وضمها إلى التراث الإسباني ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نذهب مع الأستاذ ريبيرا فيما ذهب إليه من تجريد الأندلسيين من عربيتهم ، ولا نستطيع كذلك أن نسلم بتلك التجربة التي أجراها على الأسرة الأموية الأندلسية كدليل على ذوبان الدم العربي في الدم الإسباني ؛ لأننا لا نتصور أولاً أن كل الذين جاءوا إلى الأندلس من الرجال قد تركوا نساءهم في المشرق ، ولأننا لا نتصور ثانياً أن الوفود على الأندلس كان دائماً من نصيب الرجال دون النساء ، ولأننا لا نتصور ثالثاً أن كل عربي في الأندلس كان ينجب دائماً من إسبانية جديدة ، وإن كان قد تصادف ذلك في الأسرة الأموية . فالمعقول أن توجد مولدات من أب عربي وأم إسبانية ، وأن الزيجات الغالبة كانت تم بعد الجيل الأول من هؤلاء المولدات ، وبهذا احتفظ الأندلسيون من غير قصد بنصف الدم العربي على الأقل . وإلا فكيف يتصور بناء على المثال الذي ضربه الأستاذ « ريبيرا » أن كل زيجة من عربي وإسبانية تنتج رجالاً فقط يضطرون إلى الزواج من جديد بإسبانيات خالصات ؟ أو أن الزيجات المختلطة كانت تنتج بنات وبنين . لكن البنات لا يتزوجن بل يكون الزواج دائماً من إسبانيات جديدات ؟ !

لهذا كله نفضل الأخذ بأصل نظرية الأستاذ « ريبيرا » دون المضي معها إلى آخر الشوط ، ودون التسليم بما يريد لها من نتائج . بمعنى أننا نسلم أن العرب الداخلين قد كانوا يتزوجون من إسبانيات . وأن هذه الزيجات ، أنتجت فعلاً جيلاً من الأندلسيين

تمتزج فيه الدماء العربية بالدماء الإسبانية امتزاجاً تتساوى فيه العناصر العربية والإسبانية تقريباً ، ثم إن الأمر ظل على هذا غالباً ، نظراً لكون هذا الجيل الأول من المولدين ستحدث بين بنيه وبناته زيجات يحافظ فيها على نسبة الدم العربي ، ويظل الأمر على ذلك ما تابعت الأجيال .

وإذن فالأندلسيون من حيث الأصل شعب فيه دماء عربية وفيه كذلك دماء إسبانية ، وفيه تبعاً لذلك كله ، وروثات من العرب والإسبان جميعاً .

بقي أن نقرر أن هؤلاء الأندلسيين وإن كانوا مولدين جنساً ومختلطين دماء ، فهم عرب في قوميتهم ، لأنهم عرب في عقيدتهم وثقافتهم ولغتهم وكل جوانب حضارتهم . فإذا كانت لهم بعض خصائص الإسبان في الشكل أو في الطبع ، فإن لهم جل خصائص العرب فيما وراء الشكل والطبع . ومن هنا كان تراثهم تراثاً عربياً يأخذ مكانه بين تراث العرب على مر العصور . أما ما قد يكون لهم من خصائص نفسية أو عقلية تبعاً لما ورثوه من أمهاتهم الإسبانيات ، فشيء نحترمه في الدرس الأدبي ونعني به وبإبرازه ما أمكن . وليس معنى ذلك أننا نقول بإسبانيتهم كما يقول الأستاذ « ريبيرا » ومن جازاه من المستشرقين ، وإن كنا نشكر لهم إعجابهم بأبناء عمنا الأندلسيين ، ومحاولة إلصاقهم بهم وضم تراثهم إلى ما للإسبان من تراث .

(ج) الديانات في الأندلس :

انتشر الإسلام بسرعة فائقة بين سكان شبه الجزيرة . ولعل من أهم أسباب ذلك ، أن الأرقاء الذين كانوا يرزحون تحت نير الأشراف في العهد القوطي ، قد وجدوا الإسلام طريقهم إلى الحرية ، فأقبلوا عليه ليفك أغلالهم ويعيد كرامتهم . على أن الأرقاء لم يكونوا وحدهم الذين اعتنقوا الإسلام في سرعة من بين أبناء شبه الجزيرة ، فقد شاركهم

في هذا الإقبال على الإسلام كثير من الأحرار ، أعجب بعضهم بالإسلام والمسلمين ، وأحب بعضهم الآخر أن يحافظ على الأرض التي تحت يده ، أو أن يخلص نفسه من عبء الجزية ، أو أن يرفع مكانته الاجتماعية بالانضمام إلى الممتازين أصحاب الدين الجديد وأولى الأمر أيضاً (١) .

ولذا لم يلبث الإسلام أن نحى النصرانية عن عرشها في شبه الجزيرة ، وصارت الغالبية العظمى من أهل البلاد مسلمين ، وصاروا يسمون بالمسلمة ، كما صار أبناؤهم يسمون بالمولدين . وإنما قلنا : الغالبية العظمى ، لأن المسلمين لم يكونوا يعيشون وحدهم في هذا المجتمع الكبير ، بل كانت تشاركهم أقلية من المسيحيين ، وكانت تلك أقلية كبيرة إن صح هذا التعبير . وقد ترك المسلمون هؤلاء المسيحيين حريتهم في البقاء على دينهم ، وفي مزاوله شعائرتهم ، فتجاورت المساجد والكنائس في ساحة ، واختلطت نداءات المآذن بدقات الأجراس في محبة ، وتعايش المسلمون والمسيحيون في الأندلس على أخوة .

وقد بهرت الحضارة الإسلامية هؤلاء المسيحيين الذي كانوا يعايشون المسلمين في الأندلس ، فأخذوا من هذه الحضارة ومن أصحابها الشيء الكثير ، فقلدوا المسلمين في لغتهم وتعلموا ثقافتهم ، بل لبسوا ملابسهم وعاشوا إلى حد كبير على نمط حضارتهم ، ولذلك سمو بالمستعربين Mozarabes

ولم يكن هؤلاء المستعربون هم وحدهم الذين يعايشون المسلمين من أصحاب الديانات الأخرى . فقد كانت إلى جانبهم جاليات يهودية ، وجدت من المسلمين كثيراً من التسامح وحسن المعاملة ، بعد أن وجدت في فتحهم لأسبانيا منقداً من الجور ، الذي كان اليهود يرزحون تحت نيره أيام القوط (٢) .

Levi : Espana musulmana, pp. 46 ff.

(١)

(٢) انظر المصدر السابق ص ٤٨ وما بعدها .
Palencia : Historia, pp. 124 ff. وانظر

وقد بلغ تسامح المسلمين مع المسيحيين واليهود الذين يعيشون في ظلال الحكومة الأندلسية، درجة تحمل على الإعجاب؛ فقد كان الأكفاء منهم موضع إجلال الحكام ومحل ثقة الأراء والخلفاء، كما كانت لهم في أغلب الأحيان مناصبهم الكبيرة، التي ترشحهم لها كفاءتهم دون عائق من دينهم المخالف لدين الدولة. ومن أمثلة من تمتعوا بالجاه والمنصب من المسيحيين، «أرطباس» الذي كان محل ثقة بعض ولاة الأندلس، حتى كانوا يستشيرونه في أمور البلاد، والذي كان أيضاً موضع تكريم الأمير عبدالرحمن الداخل، حتى رد عليه عشرين ضيعة وولاه القمامسة، فكان أول قومس بالأندلس^(١). ومن أمثلة هؤلاء المسيحيين كذلك «حيزون» الذي كان قاضياً للنصارى بقرطبة في أيام الحكم المستنصر، والذي كانت تسند إليه مهمة الترجمة بين الخليفة وكبار الإسبان في بعض الأحيان^(٢).

ومن أمثلة من تمتعوا بالجاه والمنصب من اليهود، «حسداى بن شبروط» الطيب، الذي كان من كبار رجال الخليفة الناصر، كما كان من ذوى النفوذ الواضح لدى المستنصر^(٣). ومنهم كذلك «صمويل بن النخريثة» الأديب، الذي كان وزيراً لباديس ملك غرناطة في عهد الطوائف.

وإذا استثنينا بعض الحوادث القليلة، يمكن أن يقال: إن تلك الأقليات غير المسلمة لم تضطهد من المسلمين إلا حين سيطر الإفريقيون من مرابطين وموحدين على الأندلس.

(د) اللغات في الأندلس :

وكما انتشر الإسلام بسرعة فائقة في شبه الجزيرة، انتشرت اللغة العربية كذلك على نطاق أوسع بين سكان هذه البلاد.

(١) انظر : تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٣٨ وما بعدها .

(٢) انظر : نفع الطيب للمقرى ج ١ ص ١٨٢ .

(٣) انظر : طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٥٠ .

وقد كان هؤلاء العرب الوافدين على الأندلس في شكل موجات كبيرة ، أثر كبير في نشر اللغة العربية في شبه الجزيرة . ولاشك أنه يضاف إلى ذلك إقبال أهل شبه الجزيرة أنفسهم على اللغة العربية ، لا فرق في ذلك بين مسلم وغير مسلم ، نظراً لكونها لغة الحضارة الغالبة والعلم المتفوق ، ولسان الممتازين ذوى السلطان . ولا أدل على مدى انتشار اللغة العربية في عصر مبكر بين المسيحيين أنفسهم ، من تلك الشكوى التي أطلقها أحد قساوستهم ، واسمه « ألفرو » القرطبي ^(١) Alvaro cordobes حيث يقول :

« إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم ، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين ، لا ليردوا عليها وينقضوها . وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربياً جميلاً صحيحاً . وأين نجد الآن واحداً من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة ؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين ، وآثار الأنبياء والرسل ؟ يا للحسرة !! إن المؤهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها ، ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم ، وهم ينفقون أموالاً طائلة في جميع كتبها ، ويفخرون في كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة جديدة بالإعجاب . فإذا حدثهم عن الكتب النصرانية أجاوبك في ازدراء بأنها غير جديدة بأن يصرفوا إليها انتباههم . باللألم !! لقد أنسى النصارى حتى لغتهم فلاتكاد تجد في الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحبه كتاباً سليماً من الخطأ . فأما عن الكتابة في لغة العرب ، فإنك واجد منهم عدداً عظيماً يجيدونها في أسلوب منمق . بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فتناً وجمالاً » ^(٢)

(١) كان في أيام عبد الرحمن الأوسط ، وكان من الذين أسهموا في إثارة النصارى وإشعال الفتنة المسماة ، بحركة الاستشهاد في منتصف القرن التاسع الميلادي .

Palencia : Historia de la Literatura arabigo-espana, p. 295.

(٢) انظر :

وانظر : تاريخ الفكر الأندلسي (وهو ترجمة المصدر السابق إلى العربية) ، قام بها الدكتور حسين

مؤنس (ص ٤٨٥ - ٤٨٦ .

وهكذا زحزحت العربية اللاتينية عن عرشها في شبه الجزيرة كما زحزح الإسلام المسيحية أيضاً . وبهذا صارت العربية اللغة الرسمية للبلاد ، كما صار الإسلام دينها الرسمي كذلك .

وقد صارت فصحي الأندلس بمرور الزمن وبمحكم البيئة الجديدة ، وبسبب احتكاك عناصرها المختلفة ، ذات خصائص محلية تميزها بعض التميز عن فصحي الأقاليم العربية الأخرى .

وقد كان من هذه الخصائص ما يتصل بالناحية الصوتية ، كما كان منها ما يتصل باستعمال الألفاظ ، فما يتصل بالناحية الصوتية ، نطق الأندلسيين للقاف قريبة من الكاف ^(١) ، وغلبة الإمالة عليهم ^(٢) . وما يتعلق باستعمال الألفاظ ، اشتقاقهم لكثير من الكلمات ، واقتراضهم لأخرى ، ثم تخصيصهم لأسماء هي في الأصل لمسميات عامة ، وتعميمهم لأخرى هي في حقيقتها للدلولات خاصة . وربما كان هذا الجانب المتصل باستعمال الألفاظ هو أبرز الجوانب التي تميز عربية الأندلس بعض التمييز . فقد كانت لهم ألفاظ خاصة كثيرة ، منها ما يختص بالإدارة وشئون الحكم ، ومنها ما يتعلق بالزراعة وري الأرض ، ومنها ما يرتبط بالبناء ووسائل العمران ، ومنها ما يتصل بالرى وأدوات الرينة ؛ وكلها ألفاظ خاصة بالأندلسيين تقريباً ، لا يكاد يستعملها غيرهم على النحو الذي عرفت عليه عندهم .

فما يختص بالإدارة وشئون الحكم ، إطلاقهم كلمة «الوزير» على كل من يجالس الخليفة أو الملك ويعتبر من خاصته ، وإن لم يشغل هذا المنصب الرسمي المعروف . وإطلاقهم كلمة «الحاجب» أو «ذى الوزارتين» على من يكون في هذا المنصب الوزاري

(١) انظر : فصح الطيب للمقرئ ج ١ ص ٥٩٢ ، ٥٩٣ .

(٢) انظر : الإحاطة لابن الخطيب ج ١ ص ٣٥ .

الرسمى خاصة (١) . وما يتصل بالإدارة وشئون الحكم كذلك إطلاقهم كلمة «خطة» على ما يعرف بالإدارة ؛ فهم يقولون : «خطة الشرطة» و«خطة القضاء» و«خطة السوق» و«خطة الاحتساب» بمعنى الإدارات المشغولة عن تلك الشئون (٢) . وما يتصل بذلك أيضاً إطلاقهم كلمة «المسدد» على حاكم البلدة الصغيرة (٣) ، وكلمة «الدراب» على حارس الدرب (٤) .

وما يتعلق بالزراعة والرى ، إطلاقهم كلمة «المجشر» على الضيعة . وقد أخذوا الكلمة من «الجشر» وهو القوم الذين يخرجون إلى المرعى بدوابهم ويبيتون مكانهم (٥) . وما يتعلق بهذا أيضاً ، إطلاقهم كلمة «الوادى» على النهر خاصة ، والكلمة فى الأصل لكل منخفض من الأرض بين جبال أو تلال (٦) . ومن هذا القبيل كذلك تخصيصهم كلمة «باكور» بما بكر من التين ، وإنما الكلمة لكل ما بكر من الثمار (٧) .

وما يرتبط بالبناء ووسائل العمران ، إطلاقهم كلمة «البلاط» على البيت المحسن (٨) وكلمة «الأسطوان» على الدهليز (٩) ، وكلمة «الثرية» على مجموعة المصابيح (١٠) .

وما يتصل بالزى وأدوات الزينة ، إطلاقهم كلمة «الغفارة» على البرنس أو نوع

(١) انظر النفع ج ١ ص ١٠١ .

(٢) انظر النفع ج ١ ص ١٠١ .

(٣) انظر النفع ج ١ ص ١٠١ .

(٤) انظر النفع ج ١ ص ١٠١ .

(٥) انظر : ألفاظ مغربية ، للدكتور عبد العزيز الأهواني ص ٢٧ ، وفتح الطيب ج ١ ص ١٢٥ .

(٦) انظر ألفاظ مغربية ص ٦٦ .

(٧) انظر ألفاظ مغربية ص ١٩ .

(٨) انظر : ألفاظ مغربية ص ٢٦ .

(٩) انظر : ألفاظ مغربية ص ١٦ .

(١٠) انظر : ألفاظ مغربية ص ٢٥ .

من الطيلسانات (١) ، وتخصيصهم كلمة «الأرجوان» بالصفوف الأحمر (٢) ، وكلمة «الحمار» بشقاق الحرير التي تغطي بها المرأة رأسها (٣) . ومعروف أن الأرجوان في حقيقته للأحمر من الصوف وغيره ، وأن الحمار لكل ما خرجت به المرأة رأسها من الثياب ، وهناك كثير جداً غير هذه الألفاظ مما استعمله الأندلسيون لمسميات حضارية ، وإطلاقهم «الجصافة» على ما يجفف به من قطع قماش قطني أو صوفي (٤) ، وإطلاقهم «البساطير» على ما يوضع حول عنق الصبي من قطعة قماش تصون ثيابه من اللعاب (٥) وإطلاقهم «الدادة» على المرابية (٦) .

وليس المراد حصر تلك الألفاظ الأندلسية ولا بيان أصولها ، وإنما المراد فقط إيضاح كيف تميزت عربية الأندلسيين عن عربية الأقاليم الأخرى بعض التمييز (٧) .

وكما كان الإسلام لا يعيش وحده في قلب شبه الجزيرة الأندلسية ، كانت اللغة العربية كذلك لا تحيا وحدها على لسان تلك البلاد . فلقد ثبت أن الفصحى وإن كانت اللغة العلمية والأدبية والرسمية ، قد عاشت إلى جانبها اللغة العامية ، كوسيلة للحديث العادي. وهذا أمر طبيعي تؤيده الظواهر اللغوية في كل لغة وفي كل قطر تقريباً (٨) ، حتى لا نحتاج معه إلى أدلة خاصة تؤيد حياة هذه العامية الأندلسية

(١) انظر : ألفاظ مغربية ص ٤٦ .

(٢) انظر : ألفاظ مغربية ص ١٥ .

(٣) انظر : ألفاظ مغربية ص ٣٠ .

(٤) انظر : ألفاظ مغربية ص ٢٨ .

(٥) انظر : ألفاظ مغربية ص ٣٠ . والكلمة لها ما يقابلها بالإسبانية مثل : Babadero ما يدل على

أصلها اللاتيني المحلى .

(٦) انظر : ألفاظ مغربية ص ٣١ .

(٧) في الملحق الذي وضعه «دوزي» للمعجم العربية كثير من هذه الألفاظ ، وكذلك البحث الذي

نشره الدكتور عبد العزيز الأهواني باسم . «ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة» .

(٨) انظر : الدكتور إبراهيم أنيس : اللهجات العربية ص ٢٤ وما بعدها .

إلى جانب الفصحى . ومع هذا هناك أدلة عديدة تؤكد أن الأندلسيين كانت لهم عامية عربية يستخدمونها في حياتهم اليومية . ويتكلمون بها في حديثهم البعيد عن العلم والأدب والرسميات . ومن تلك الأدلة ما يتصل بالقرون الأولى لحياة المسلمين في الأندلس ، ومنها ما يتصل بالقرون الأخيرة لحياتهم هناك .

فقد ذكر ابن بسام في حديثه عن أول أندلسي اخترع الموشحات ، أن ذلك المخترع كان « يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحة »^(١) وليس يعنينا الآن تفصيل القول في هذا المخترع ولا في طريقة عمله للموشحات ، لأن ذلك سيفصل في مكانه من هذا البحث^(٢) ، وإنما الذي يعنينا أن نشير إلى أن ذلك المخترع مُقَدِّم بن معاني القَبْرِي كان - كما يقول ابن بسام - يعتمد على الالفاظ العامية كركز لموشحاته ، ومقدم هذا قد عاش في أواخر القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) فكان الأندلسيين كانت لهم في تلك السنين المتقدمة من حياتهم في الأندلس عامية يعتمد عليها مثل هذا الفنان فيما يصوغ من موشحات .

كذلك يذكر ابن سعيد المغربي ، وهو من أدباء القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) « أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، حتى لو أن شخصاً من العرب سمع كلام الشَّلَوْبِي أبي علي المشار إليه بعلم النحو . . وهو يقرئ تلاميذه لضحكك بملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه . والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب وأخذ يجرى على قواعد النحو استقلوه واستردوه »^(٣) .

وحديث ابن سعيد يفيد - كما هو واضح - أن الأندلسيين ، بل الثقفين

(١) ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ق ١ م ٢ ص ١ .

(٢) انظر الفقرة الخاصة باختراع الموشحات في الفصل الثالث من هذا الكتاب .

(٣) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٠٣ .

والعلماء منهم . كانوا يتكلمون عامية كثيرة الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، وأن تلك الظاهرة كانت موجودة بين الأندلسيين ، وليست فقط في عهدهم الأول بشبه الجزيرة ، حيث يمكن أن يقال إن العربية لم تكن قد استقرت بعد ، وإنما كانت موجودة أيضاً في عهدهم المتأخرة ، حيث مضت قرون على دخول العربية إلى الأندلس ، وحيث انتشر تعليمها وتعددت معاهدها وكثر أساتذتها وشاعت مؤلفاتها .

وقد كانت هذه العامية الأندلسية ذات سمات محلية ما زالت تزداد بمرور الزمن ، حتى جعلت من تلك اللهجة شيئاً غريباً عسير الفهم على غير الأندلسيين وقد كان من تلك السمات^(١) ما يلي :

إدماج الفعل المساعد (كان) في الفعل المضارع الذي يتلوه ، بحيث تحذف نون (كان) وتبقى الكاف فقط ، فيقال في كان يقول « كيقول » .

إدماج (في) الجارة ، في الاسم الداخلة عليه ، والاكتفاء أحياناً بالفاء متصلة بهذا الاسم ، ونطقها بين الكسر والفتح .

استعمال ظروف خاصة هي ليست في الأصل ظروفاً ، مثل استعمال كلمة (عاد) بمعنى (بعد) التي تأتي عادة مع الفعل المنفي ، فيقال « لم أفعل هذا عاد » بدلا من « لم أفعل هذا بعد » . ومثل استعمال الحرف (يا) ظرفاً للحال ، فيقال « يا أكلت » بدلا من « قد أكلت الآن » .

استعمال المثني بالياء والنون دائماً وإبقاء الفتحة قبل الياء . واستعمال فعل الأمر للمذكر والمؤنث بلفظ واحد . واستعمال المضارع المسند للمتكلم وحده أو المتكلم ومعه

(١) استخرج هذه السمات وكثيراً غيرها الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهماني في بحثه عن « الزجل في الأندلس » . انظر مقدمة هذا المرجع ، صفحات : ز ، ح ، ط ، وانظر شرحه لما يرد في النصوص من ألفاظ أندلسية عامية .

غيره بالنون في الحالتين ، فيقال في « أقوم » « نقوم » . ومن هذا التوسع في الاستعمال أيضاً . عدم تخصيص (قد) بالفعل ، وإدخالها على الاسم .

تسكين أواخر الكلمات ، وتحريك هذه الأواخر بالفتح حين يراد التخلص من الساكنين .

قطع بعض الكلمات ، وكتابتها على حالها بعد القطع ، فيقال مثلا : (ه) أي « هو » ويقال (ل) أي « له » .

استعمال كثير من الألفاظ غير العربية . وأبرز ما كان من ذلك ، تلك الألفاظ المقترضة من اللاتينية المحلية ، مثل (ألمسا) أي نفس . و(ألبا) أي فجر ، و(إشنت) أي هذا ، و (مطر) أي أم^(١)

كذلك ثبت أن الأندلسيين لم يكونوا يعرفون العربية فصحي وعامية فقط ، وإنما كانوا يعرفون إلى جانبها لغة أجنبية أخرى ، هي إحدى اللهجات العامية المتفرعة من اللاتينية . وكانت هذه اللاتينية العامية لغة الإسبان عند الفتح العربي . لأننا نعرف أن اللاتينية كانت قد دخلت إسبانيا مع الرومان ، وطبعي أن تتطور هذه اللاتينية على ألسنة الإسبان بعد انتقالها من موطنها الأصلي إلى شبه الجزيرة الإيبيرية . ومن هنا كانت تلك اللهجة اللاتينية العامية التي يسميها العلماء « رومانثي » Romance ، ثم كانت معرفة مسلمي الأندلس لها عن طريق هذا الامتزاج التام الذي حدث بين العرب الوافدين وكثير من الإسبان الأصليين بسبب كثرة الزيجات العربية الإسبانية ، وإنتاج أجيال جديدة يتكلم آباؤها العربية وأمهاتها الرومانثي ؛ فطبعي أن يعرف الأبناء لغة الأمهات كما يعرفون لغة الآباء^(٢) .

(١) هذه الألفاظ يقابلها في الإسبانية : Alma Alba. Este. Madre .

(٢) صاحب نظرية معرفة الأندلسيين لهذه اللاتينية العامية هو المستشرق الإسباني (غوليان ريبيرا)

. Julian Ribera

أنظر كتابه : Disertaciones y opusculos, vol. 1, pp. 28 ff

كذلك كانت معرفة الأندلسيين بتلك اللغة غير العربية ، عن طريق دخول أسر إسبانية كثيرة في الإسلام ، وهي تعرف لغتها الأصلية بطبيعة الحال ، إلى جانب اللغة العربية المتعلمة .

ثم لا يمكن أن يغفل هذا التعايش المتصل بين من ينتمون إلى أصول عربية وهم المسلمون ، ومن ينتمون إلى عناصر إسبانية وهم المسيحيون ، فهؤلاء لغتهم الأصلية « الرومانشي » ، ومن شأن المعاشة أن تتيح لكل من المتعاشين التعرف على لغة صاحبه .

وليس يُعتمد فقط على تلك الأدلة النظرية ، لإثبات معرفة الأندلسيين باللغة « الرومانشي Romance » بل هناك كثير من الأدلة التي تؤيد معرفة مسلمي الأندلس بتلك اللغة .

من تلك الأدلة ما ذكره المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم ، من أنه التقى في موسم الحج ببعض الأندلسيين ، وأنه وجدهم يتكلمون لغة عربية عسيرة الفهم ، ولغة أخرى أعجمية . فتلك العربية عسيرة الفهم ، هي العامية الأندلسية ذات الخصائص المعينة التي ربما سببت عسر فهمها على المقدسي . وتلك الأعجمية التي يشير إليها هذا الجغرافي ، ليست إلا تلك اللغة التي يسميها الباحثون « رومانشي »^(١) .

ومن أدلة معرفة الأندلسيين لتلك اللغة الأجنبية أيضاً ، ما حكاه الخُشَنبِيّ في كتابه تاريخ قضاة قرطبة ، من أن قاضياً شكته العامة إلى الأمير عبد الرحمن الثاني ، فأمر الوزراء بسماع الشهادة فيه ، وكان بالمدينة شيخ أعجمي اللسان يسمى « ينير » Yenair وكان مقدماً عند القضاة ، مقبول الشهادة مشهوراً عند العامة بالخير وحسن المذهب ، فأرسل إليه الوزراء وسألوه عن القاضى فقال بالعجمية : « ما أعرفه ، إلا أنى سمعت الناس يقولون : إنه إنسان سوء (وصغر باللفظ العجمي) . فلما رفع قوله إلى الأمير -

(١) انظر المرجع السابق .

رحمه الله - عجب من لفظه ، وقال : ما أخرج مثل هذه الكلمة من هذا الرجل الصالح إلا الصدق ^(١) .

وواضح أن ما حكاه الخشني يدل على أن من أهل الأندلس من كان كهذا الشيخ يتحدث بتلك اللغة العجمية أو « الرومانتي » كما تسمى . وواضح كذلك أن من كبار رجال الدولة من كان يفهم تلك اللغة أيضاً . كما فهم هؤلاء الوزراء حين سمعوا شهادة الشيخ ، بل كما فهم الأمير عبد الرحمن الأوسط ، حين رفعت إليه عبارة الرجل ، فأعجب من دقتها ، واعتبر أن مصدر هذه الدقة هو الصدق .

ومن تلك الأدلة التي تساق لتأكيد معرفة الأندلسيين « بالرومانتي » ما رواه ابن حزم في كتابه جمهرة أنساب العرب ، وفي حديثه عن بعض فروعهم المسمين بنى بكري ، إذ يقول مميلاً لهم : « لا يحسنون الكلام باللطينية ، لكن بالعربية فقط ، نساؤهم ورجالهم » ^(٢) .

فتخصيص ابن حزم لبني بلج بهذه الميزة اللغوية - ميزة عدم إحصان الكلام باللطينية - يفيد أن غير هؤلاء من الأندلسيين كان يحسن الكلام بها ، أو أن كثيرين غير هؤلاء كانوا يتحدثون بتلك اللغة التي سماها باللطينية ، فأصبح عدم إحصان بني بلج لها ميزة تستحق التنويه .

ثم لماذا نتصيد الأدلة على وجود عامية عربية وعامية لاتينية إلى جانب الفصحى في الأندلس ؟ إن في تراث الأندلسيين لوناً من الشعر ، في كثير من نماذجه قد استخدمت ألفاظ عامية وأخرى رومانية ، ذلك اللون هو ما يسمى بالشعر الشعبي الذي يتفرع إلى فرعين هما الموشحات والأزجال ، وسوف نفردها لهذا الشعر الشعبي حديثاً في هذا الكتاب ،

(١) الخشني : تاريخ قضاة قرطبة ص ٩٦ .

(٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب (محقق ليث برونسال) ص ١٤٥ .

وسوف تنضح في جلاء معرفة الأندلسيين للعامة والرومانشي ، من خلال تلك النماذج التي سرد لهذا الشعر الشعبي (١).

على أنه يجب أن نقرر أن العربية الفصحى كانت دائماً في المحل الأول ؛ فكانت لغة العلم والأدب العالي ، كما كانت لغة الرسميات وكل ما هو جاد من أمور الدولة . أما العامية العربية فكانت تلي تلك الفصحى في المنزلة ؛ وذلك لاستنادها إلى الفصحى وتفرعها عنها وقربها منها . وأما تلك العامية اللاتينية Romance ، فكانت في المحل الأخير بطبيعة الحال . وكانت تحيا أساساً بين المستعربين ، باعتبارها لغتهم الأصلية ، أما غيرهم فكانوا يعرفونها من معاشتهم لهؤلاء أو من كون بعض أصولهم أو أقربائهم من الإسبان المتحدثين بتلك اللغة . ومن هنا كان حديث غير المستعربين بتلك اللغة ، إنما يكون مثلاً بين الرجل وامرأته التي هي إسبانية الأصل . أو بين المرأة الإسبانية وبنيتها من رجل عربي ، أو بين مسلم ومستعرب لا يجيد العربية .

(٥) الشخصية الأندلسية :

عُرف الأندلسيون بشخصية متميزة ، أسهم في تكوينها إقليمهم وأصلهم وموضع بلادهم واقتصاد بيئتهم (٢).

أما الإقليم ، فقد عرفناه مختلف الطبيعة مقسم الجهات متباين الأصقاع ، وقد سبب هذا اختلافاً في طبيعة السكان وتقسمها في نزعاتهم وتبايناً في ميولهم منذ أقدم العصور ؛

(١) انظر البحث الخاص بالموشحات في الفصل الثالث من هذا الكتاب .

(٢) نقرر أن كثيراً من مظاهر الشخصية المذكورة في هذا الحديث ينطب في عصر دون عصر ولكننا نحاول رسم صورة تقريبية ، لأن لكل عصر في الحقيقة طابعه المنعكس على الأفراد والمكون لشخصياتهم أو المنعبر لها بعض التغيير ، هذا بالإضافة إلى تغير الشخصية من واحد إلى آخر على ما هو معروف . فهذه خطوط تقريبية وعامة إلى حد كبير .

فهم بين جلالقة^(١) في الشمال الغربي، وقطلانيين^(٢) في الشمال الشرقي، وبشكنس^(٣) في الشمال، وقشتاليين^(٤) في الوسط، وجنوبيين^(٥) فيها وراء الجبال السمراء.

ولما دخل المسلمون هذه البلاد كان لذلك الانقسام الجغرافي أثر في انقسام الأندلسيين في كثير من الأحيان، وقد ساعد على هذا اختلاف العناصر التي ينتمي إليها هؤلاء الأندلسيون من عرب إلى بربر إلى إسبان.

وقد اتضح هذا الانقسام الذي سببته الطبيعة وغذاه الدم، حتى ليلاحظ في أغلب العصور الأندلسية المعروفة. فلم يخل عصر تقريباً من ثورة يقوم بها هذا الإقليم أو ذاك، أو من حركة انفصال تحاوطها هذه المنطقة أو تلك، أو من روح تمرد يبديها هؤلاء أو أولئك. وكان من نتائج ذلك أن كثر إرسال الجيوش وقيادة الجند، إن لم يكن لإخضاع ثورة لإقليم مسلم، فلرد هجمة جيش مسيحي، وإن لم يكن لسد بعض الثغور، فلتأمين بعض الحدود، وشواهد ذلك كثيرة في كتب تاريخ الأندلس.

وقد سبب ذلك نوعاً من القلق في المجتمع الأندلسي فكان في كثير من عهوده مجتمعاً قليل الاستقرار كثير الهزات.

ومن هنا يمكن أن نتصور الشخصية الأندلسية التي عاشت في ظلال هذه الظروف، شخصية قد عانت نوعاً من القلق، جعلها تسعى إلى ما يشعر بالأمن أو إلى ما يسكن على الأقل بعض هذا القلق. وربما كان ذلك من أسباب ما نعرف من ميل الأندلسيين إلى ألوان من المتعة وصنوف من اللهو، كالشراب والغناء والرقص والموسيقى، وما أشبه ذلك مما كان يكلف به الأندلسيون.

Gallegos (١)

Catalanes (٢)

Vascos (٣)

Castillanos (٤)

Andaluces (٥)

على أن طبيعة بلاد الأندلس المقسمة المتباينة ، إن سببت هذه الظاهرة السيئة في حياة المجتمع وفي نفوس أفراده - وأغنى ظاهرة القلق - فقد عوضت تلك الطبيعة نفسها هذا النقص بظاهرة حسنة ، كان لها أثر حميد في نفوس الناس وطباعهم ، ثم في فنونهم وآدابهم . ذلك أن الأندلسيين - كما ذكرنا - عاشوا أكثر ما عاشوا في تلك السهول الخصبة ذات الجمال الطبيعي الفاتن ، وقد انعكس هذا على الناس خصوصية في خيالهم ، وجمالاً في طباعهم ، ورقة في أحاسيسهم ، وأخرج منهم أناساً يغلب عليهم طابع المحيين للجمال مشاهدة وتمثلاً ، ثم محاكاة وتصويراً .

هذا ما كان من تأثير طبيعة الإقليم على الشخصية الأندلسية ، أما ما كان من تأثير لأصل الأندلسيين ودمائهم وعوروثاتهم ، فقد عرفنا الأندلسيين مولدين من عرب وإسبان ومن شرفيين وغربيين ، وعرفنا الإسبان من قبل العرب مولدين بدورهم ، فقد اختلطت فيهم دماء الإيبيريين بدماء السلتيين ، ثم بدماء الفينيقين والإغريق والقرطاجنيين والرومان والوندلس والقوط . فلما جاء العرب أخيراً كان الأندلسيون آخر الأمر ، خلاصة كل هذا التوليد ونتيجة كل ذلك الاتصال . وكان من نتائج ذلك أن أتى العنصر الأندلسي المولد ذا خصائص خلقية وخلقية وعقلية ونفسية مميزة جاءت كلها نتيجة لهذا التولد من تلك العناصر التي اختلطت منذ أقدم العصور .

وكان أهم هذه الخصائص الخلقية : البياض المشرب بحمرة ، وقد يمتزجان فيصيران سمرة في الجنوب . ثم القوام المعتدل الطول ، والشعر الذي يغلب عليه السواد . كل ذلك مع الوسامة في الملامح والجمال في التكوين^(١) .

(١) راجع ما وصف به لسان الدين بن الخطيب أهل غرناطة في كتاب ، الإحاطة (ج ١ ص ٢٤ - ٢٥) ، وتلك الأوصاف تنطبق إلى حد ما على الأندلسيين لأن كثيراً من سكان غرناطة قد جاؤوا من باقي الأقاليم الأندلسية بعد أن أصبحت هذه المملكة كل ما بقى للمسلمين في الأندلس . على أن صور الأندلسيين قد تدل عليها صورة الإسبان اليوم . وهي قريبة من الأوصاف التي ذكرناها .

أما خصائص الأندلسيين من الناحية الخلقية ، فقد كانت المحافظة على الأصول الأخلاقية العامة ، لكن مع ميل إلى التحرر والانطلاق ، وحب للترخص وبغض للترمت . ومن هنا كانوا يكلفون بالشراب الذي ساعدت عليه وفرة الكروم في بلادهم ^(١) . كما كانوا يهيمون بالموسيقى والغناء والرقص ، وهي فنون ربما كانت أنسب شئء إلى ظروفهم النفسية ، المطالبة بنوع من التنفيس .

وربما كان من خصائص الأندلسيين فيما يتعلق بالأخلاق - أو إن شئت فقل فيما يتصل بالعادات - كلفهم الشديد بالنظافة ^(٢) وحبيهم العظيم للتأنيق ، وسيلهم الواضح إلى الزينة ^(٣) ، ثم انفرادهم بتقاليد في الزي تخالف ما كان عليه أهل الأقاليم الإسلامية الأخرى ^(٤) .

فهم مثلا كانوا - في بعض عهودهم - يميلون إلى كشف الرأس وعدم لبس العمام ونحوها مما كان يستعمل في الأقاليم الإسلامية حينئذ . كما كان المعمون بحكم مناصبهم كالفقهاء والقضاة يتخذون عمام مغايرة تماماً لما كان عليه المشاركة . كذلك كانت ملابس الأندلسيين تتخذ تفاصيل وهيئات خاصة بهم ، لا يكاد يعرفها إخوانهم في المشرق ، وكان من أهم ظواهر مغايرة الأندلسيين للمشاركة في تقاليد الزي ، اتخاذهم البياض لوناً للحداد ^(٥) .

(١) بلغ إقبالهم على الشراب إلى حد أن الحكم المنتصر هم بقطع الكروم وإراقة الأشرطة في أقاليم الأندلس . انظر جنوة المقتبس للحميدى ص ١٤ .

(٢) انظر : فتح الطيب للمقرئ ، ج ١ ص ١٠٤ .

(٣) انظر : المصدر السابق ج ١ ص ١٠٣ - ١٠٤ ثم ج ٢ ص ١١١ - ١١٢ .

(٤) انظر : فتح الطيب للمقرئ ج ١ ص ١٠٣ .

(٥) وما ورد مشيراً إلى تلك العادة قول الشاعر أبي الحسن الحمصى :

إذا كان البياض لباس حزين بأندلس فذاك من الصواب
أم ترفى لبس بياض شيبى لأنى قد حزنت على شبابى

أما خصائص الأندلسيين العقلية فأهمها : الذكاء الذي يميل إلى البساطة أكثر مما يميل إلى التعقيد ، والتفكير الآخذ باليسر النافر من التفلسف . ومن هنا كانوا يعدون كثيراً عن التفرع والتعمق والتفلسف في أحوالهم العقديّة والثقافية والفنية أيضاً .

على أن من أهم خصائص الأندلسيين من الناحية النفسية ، ذلك الإحساس الذي يكاد يكون مركب نقص عاناه الأندلسيون بسبب وضعهم من المشاركة . فالمشاركة كانوا في مهد الثقافة الإسلامية ، وبلادهم منع اللغة العربية ، وأقاليمها مصدر الانجازات الأدبيّة ، فكل شيء عقدي أو عقلّي أو فني يظهر أولاً في المشرق ويأخذ منه المشاركة بما يشاءون ، ثم يفد بعد ذلك على الأندلس . وذلك كان بسبب قرب المشاركة من المصدر وبعد الأندلسيين عن هذا المصدر . ولهذا كان الأندلسيون يحسون بنوع من التخلف عن المشاركة ، ويحاولون دائماً أن يعوضوا ذلك بتأكيد تفوقهم برغم بعدهم ، وسبقهم برغم غربتهم . ومن هنا نراهم يتعصبون للدين تعصباً شكلياً ، حيث يتعلقون بمذهب مالك مثلاً تعلقاً يوشك أن يكون جموداً ، هذا على حين يترخصون في كثير من الأمور ترخصاً ربما كان مخالفة صريحة للدين من أساسه .

كذلك نراهم يتعصبون للغة تعصباً ظاهرياً أيضاً ، حيث يفتنون بعلم النحو مثلاً ويقتلونه درساً وتأليفاً ، ثم هم في الوقت نفسه يتخذون حياتهم لغة أبعد ما تكون عن النحو بل ربما كانت أبعد ما تكون عن العربية نفسها .

كما نراهم يتعصبون للأدب التقليدي تعصباً صوريّاً . فيتلقفون مذاهبه ويهضمون اتجاهاته ويحفظون مؤلفاته ، ويتسابقون إلى عمل مثلها أو أحسن منها . كل هذا مع اختراعهم أشكالاً جديدة من الأدب ، تبعد كل البعد عن تلك الأشكال التقليدية التي يأخذون بها أنفسهم حين ينظرون إلى الأدب الوارد إليهم من المشرق .

وهكذا نرى ذلك الإحساس بالنقص أمام المشاركة كان يدفع إلى كل ما يلاحظ

في حياتهم من تقليدية في الدين والثقافة والأدب ، على حين يجذبهم شيء آخر إلى التحرر والانطلاق والتجديد. هذا الشيء هو بُعد بلادهم عن المشرق ، واختلاط عناصرهم بعناصر أجنبية عن العرب ، واتصالهم بمؤثرات تفتح أعينهم على كثير مما ليس في تقاليد الحياة الإسلامية العربية . ومن هنا يمكن أن نفسر هذين الجانبين من حياة الأندلسيين : الجانب التقليدي الصارم الذي جاء بدافع حب التفوق على المشاركة فيما سبق إليه المشاركة ، ثم الجانب التحرري المنطلق الذي جاء من البيئة النائية والأصل المولد والمجتمع المختلط .

بقي أن نقول : إن اقتصاد بيئة الأندلس قد أسهم كذلك في تكوين شخصية الأندلسيين ؛ فقد كانت الأندلس في أغلب عهدها بيئة غنية بالزراعة النامية التي أدخل المسلمون كثيراً من طرقها وأدواتها ونباتاتها ، والتي لا تزال آثارها باقية إلى اليوم ، في المزارع الإسبانية المحافظة على كثير من الأسماء العربية في المكان والنبات والآلة على السواء^(١).

ولم تكن الزراعة هي مصدر الرخاء الوحيد ، بل كانت هناك الصناعة أيضاً ، وكانت تعتبر من أهم دعائم الاقتصاد الأندلسي حينئذ ، فقد وفد على الأندلس بعد الفتح كثير من الصناع المهرة الذين جاءوا من مختلف الأقاليم الإسلامية ، وساعدتهم موارد الأندلس الأصلية على تأسيس صناعات وتنمية أخرى ، حتى اشتهرت مدن كثيرة بصناعات لا يزال أثرها حتى اليوم ، مثل قرطبة وشهرتها بالمنسوجات ، وألمرية وشهرتها بمنتجات الفخار ؛ ومثل قونقة التي عرفت بمصنوعات العاج ، وشاطبة التي نبغت في صناعة الورق ، وطليلطة ذات التفوق في إنتاج السيوف وعدد الحرب .

(١) من أمثلة أدوات الزراعة الباقية إلى اليوم Acequia, Aljibe, Alcaduz ومعناها : الساقية ، الجب ، القادوس .
ومن أمثلة المزروعات التي لا تزال تحمل الاسم العربي Arroz, Azucar, Aceituna ومعناها : الرز ، السكر ، الزيتون .

هذا وقد كان للتجارة شأن كبير في المجتمع الأندلسي . ولاشك أن ثغور الأندلس العديدة ومنتجاتها الكثيرة بما شجع على رواج التجارة الأندلسية ؛ فقد كانت إشبيلية تصدر القطن والزيت ، كما كانت تستورد المنسوجات المصرية الشهيرة . وتستقبل كذلك قوافل الرقيق من آسيا وأوروبا ، وكانت هذه التجارة غير الإنسانية رائجاً في تلك العهود . كذلك كانت جيان ومالقة تصدران التين والسكر والمرمر ، على حين تصدر بلاد أندلسية أخرى النحاس وأنواعاً مختلفة من المعادن .

وكانت أهم أسواق بضائع الأندلس في إفريقيا وآسيا وخاصة مصر والقسطنطينية وكان البيزنطيون يتلقون منتجات الأندلس ، ويصدرونها بدورهم إلى آسيا الوسطى والهند . وبالإضافة إلى كل هذا كانت هناك علاقات تجارية للأندلس مع باقي بلاد العالم الإسلامي وعواصمه كحكة وبغداد ودمشق^(١) .

وليس من شك في أن الرخاء الاقتصادي يسهم في تكوين الشخصية ، لهذا كان الأندلسيون بهذا الرخاء الذي غلب على حياتهم ، قادرين على مواجهة الحياة في ابتسام وتفاؤل وفتح إلى حد كبير . كذلك كان هذا الرخاء من عوامل إقبالهم على الثقافة وتعلقهم بالأدب واقتنائهم للكتب . ومن هنا كان المجتمع الأندلسي مجتمعاً مثقفاً متأدياً ، بل كان أكثر مجتمعات أوروبا ثقافة وأدباً في تلك العصور ، بل إن شئت فقل : كان هو المجتمع الأوربي الذي يمكن أن يتصف بالثقافة والأدب حينذاك .

الفصل الأول
فبئرة الولاة

١ - فترة منازعات وحروب :

أهم ما تتسم به فترة الولاة من الناحية السياسية أنها فترة منازعات وحروب^(١)، فهي فترة الفتح وما يتبعه من تأكيد سلطان الفاتحين بتتبع الفارين والمناوئين؛ ثم هي فترة المنافسة على الولاية والمنازعة في السلطة، بين العرب والبربر أولاً، ثم بين العرب أنفسهم قحطانيين وعدنانيين ثانياً. وهكذا شهدت تلك الفترة من تاريخ الأندلس كثيراً من الحملات الحربية. التي كانت تسير إلى لقاء الفرنجة عبر البرانس حيناً، وإلى لقاء الإسبان في الأقاليم الشمالية من شبه الجزيرة حيناً آخر. كذلك شهدت تلك الفترة كثيراً من الثورات، يقوم بها البربر ضد العرب تارة، ويشنها بعض العرب ضد واليهم تارة أخرى، وكتب التاريخ تورد لنا أسماء أربعة وعشرين والياً^(٢) قاموا بالأمر تبعاً في الأندلس خلال تلك الفترة، التي لا تبلغ نصف القرن. وهذا وحده كاف في

(١) انظر: أخبار مجموعة ص ١٩ - ٥٨. وابن القطوية: تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٠ -

١١. وابن عذاري: البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠ - ٥٦.

وانظر أيضاً: Levi: Espana musulmana, pp. 22 ff.

(٢) هؤلاء الولاة هم: طارق بن زياد (٧١٠ - ٧١١) م وموسى بن نصير (٧١١ - ٧١٣)

وعبد العزيز بن موسى (٧١٣ - ٧١٥) وأيوب بن حبيب (٧١٥ - ٧١٥) والحرب بن عبد الرحمن (٧١٥ -

٧١٨) والسلم بن مالك (٧١٨ - ٧٢٠) وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (٧٢١ - ٧٢١) وعنبسة بن مجيم

(٧٢١ - ٧٢٥) وعذرة بن عبد الله الفهري (٧٢٥ - ٧٢٥) ومجيم بن سلمة الكلبي (٧٢٥ - ٧٢٨)

وحذيفة بن الأحوص (٧٢٨ - ٧٢٨) وعثمان بن أبي نعمة (٧٢٨ - ٧٢٩) والهيثم بن عبيد (٧٢٩ -

٧٢٩) ومحمد بن عبد الله الأشجعي (٧٢٩ - ٧٣٠) وعبد الرحمن الغافقي للمرة الثانية (٧٣٠ - ٧٣٢)

وعبد الله بن قطن (٧٣٢ - ٧٣٤) وعقبه بن حجاج (٧٣٤ - ٧٤٠) وعبد الملك بن قطن للمرة الثانية

(٧٤٠ - ٧٤٠) وبلج بن بشر (٧٤٠ - ٧٤١) وثعلبة بن سلمة العامل (٧٤١ - ٧٤٢) وأبو الخطار

حسام بن ضرار (٧٤٢ - ٧٤٤) وثوابة بن سلمة (٧٤٤ - ٧٤٦) وعبد الرحمن بن كثير (٧٤٦ -

٧٤٦) ويوسف الفهري (٧٤٦ - ٧٥٥).

نصور ما كانت عليه سياسة الأندلس في هذه الفترة من اضطراب وعدم استقرار . فالحكم الإسلامي كان لا يزال في طور البدء بتلك البلاد، ولم يكن قد أصاب حظاً من الاستقرار المطمئن بعد، ولم تكن الحكومة الإسلامية هناك قد وطدت سلطانها على الأقاليم الشمالية، التي تلوذ بها جماعات فارة متربصة . كذلك لم تكن الحكومة الإسلامية قد أمنت حدودها ضد الفرنجة فيما وراء البرانس . وبعد ذلك كله لم يكن المسلمون أنفسهم على وفاق دائماً في تلك الفترة من حياتهم بالأندلس ؛ فالعرب قد تفردوا بالسهول الحصية ، وجعلوا منهم الولى وغيره من حكام الأقاليم ، أما البربر فقد أفردوا بالمناطق الجبلية والأقاليم النائية، وحرروا من الولاية وبما يشبه الولاية من رياسات . والعرب أنفسهم قد جاءوا إلى الأندلس بعصبياتهم ولم ينسوا العداوات القديمة بين عدنان وقحطان .

ومن هنا كانت الحروب الدينية بين المسلمين والإسبان والفرنجة أولاً ، وكان النزاع العنصرى الدموى بين العرب والبربر ثانياً . ثم كان الصراع القبلى بين العرب أنفسهم آخر الأمر . لهذا كله كانت السمات السياسية لتلك الفترة هى النزاع والصراع ، والاضطراب والقلق .

٢ - مجتمع مفكك قلق :

وقد كان أكثر الداخلين إلى الأندلس في تلك الفترة من أهل الحرب والحكم ، وكانوا في أول لقاءهم بسكان هذه البلاد ، وفي أولى مراحل التعرف إليهم والانصال بهم . وبالرغم من أن هؤلاء السكان الأصليين كانوا يقبلون على الإسلام ويحاولون تعلم العربية ، وبالرغم من أن الوافدين كانوا يتزوجون منهم ويعيشون في البلاد معهم ؛ قد كان قرب العهد بالفتح لا يزال يطبع المسلمين بطابع الغرباء ، ويطبع الإسبان بطابع المواطنين ، فكان المجتمع لم يتم توحيده بل لم يتم ترابطه . فإذا أضفنا إلى ذلك ما تعكسه المنازعات

والحروب التي كانت أهم مومات السياسة في تلك الفترة ؛ تصورنا المجتمع في تلك السنوات من تاريخ الأندلس ، مجتمعاً مقسماً مفككاً ؛ فيه عرب وفيه بربر ، وفيه إسبان مسلمون وغير مسلمين ، ثم تصورناه قبل ذلك مجتمعاً لا استقرار فيه ولا هدوء ؛ فهو بين جيوش تسير ، وثورات تشب ، ووال يعزل ، وآخر يقتل . وكل هذا من شأنه أن يصيب المجتمع بأنواع من الاضطراب الحسى والنفسى ؛ تعوقه عن كل ما هو في صالح تقدمه ونهوضه .

٣ - الأشعة الأولى للثقافة الإسلامية :

لسنا - بعد ما تقدم - ننتظر ثقافة لتلك الفترة من تاريخ الأندلس ، فالفترة فترة منازعات وحروب ؛ والمجتمع مفكك قلق ، مضطرب الحس والنفس جميعاً . وأغلب الداخلين إلى الأندلس جنود وحكام ، شأنهم المعارك والسياسات لا العلوم والثقافات . ومع ذلك قد عرفت الأندلس في فترة الولاة نوعاً من الثقافة ، كان بمثابة خيوط الفجر الأولى ، التي تؤذن بصبح مشرق . فقد دخل الأندلس في فترة الولاة نفر من الصحابة والتابعين ^(١) ، الذين كانوا على حظ من المعرفة الدينية ، وكانوا يصحبون الجند أو يفدون بعد الفتح ، للإفتاء فيما يعن للمسلمين من أمور الدين ، كتقسيم المغامم وتحديد الضرائب وتخطيط المساجد ، وتفقيه الناس ^(٢) . وأغلب الظن أن هؤلاء قد أسسوا أوائل المدارس الأندلسية ، حين أنشئت أوائل المساجد في إشبيلية وقرطبة وغيرها

(١) من الصحابة: المنبذ . ومن التابعين: موسى بن نصير ، وعلى بن رياح ، وحش الصنعاني ، وابن يزيد الممازري ، ونشيط بن كنانة العذري ، وحيوة بن رجاء التيمي ، وعياض بن عقبة الفهري ، وعبد الجبار بن أبي سلمة . انظر : المقرئ : نفتح ج ٢ ص ٥١ وما بعدها ، والمراكشي : المعجب ص ٩ - ١٠ .

(٢) من المعروف أن عمر بن عبد العزيز بعث عشرة من التابعين إلى إفريقية لتثقيف الناس . والعلاقة كانت وثيقة بين إفريقية والأندلس . انظر : رياض النفوس لأبي بكر المالكي ج ١ ص ٦٤ وما بعدها .

من البلاد ، وأن عنايتهم كانت قبل كل شيء بتدريس كتاب الله وسنة رسوله ، وبلغه القرآن والحديث^(١) .

وليس من شك في أن الحياة الثقافية كانت متواضعة أشد التواضع ، وأنها لم تكن تتجاوز حلقات في بعض المساجد التي كانت قليلة حينذاك ، كما كان الأساتذة قليلين أيضاً بطبيعة الحال .

٤ - البذور الأولى للأدب العربي :

وكما عرفت تلك الفترة نوعاً متواضعاً من الثقافة ، عرفت كذلك قدرأ ضئيلاً من الأدب ، وكما وفدت الثقافة المتواضعة مع نفر من العلماء كانوا ممن خدموا الولاية الإسلامية حينئذ ؛ وقد الأدب الضئيل أيضاً مع نفر من الأدباء كانوا ممن عملوا في الولاية الأندلسية في تلك السنين . وكما كان هذا القدر المتواضع من الثقافة بمثابة الخيوط الأولى لفجر الثقافة الأندلسية ، كان هذا الحظ الضئيل من الأدب بمثابة بذور الأدب الأندلسي الذي سيزدهر بعد حين . وفيما يلي كلمة عن كل من جنسى الأدب :

(١) الشعر :

كان من بين العرب الوافدين على الأندلس في فترة الولاة نفر ممن يقرضون الشعر وقد حفظت لنا المراجع بعض أسماء هؤلاء ، فمنهم :

أبو الأجرى جَعَوْنَةَ بن الصَّمَّة . وهو من العرب الطارئين على الأندلس ، وقد اشتهر بهجاء الصَّمَمِيل بن حاتم رئيس القيسية هناك . واشتهر أيضاً بمدح الصمائل بعد

(١) استفاد ذلك مما ذكر صاعد في : طبقات الامم ، حيث قرر أن عناية الأندلسيين كانت فقط بعلوم الدين واللغة حتى تولد الملك لبي أمية (ص ٦٢) .
وانظر : ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٠ - ٤١ .

أن تمكن منه فعفا عنه . وقد قيل إن هذا الشاعر كان في مرتبة جرير والفرزدق ، وأنه لو أنصف لاستشهد بشعره . كذلك روى أن أبو نواس سأل عنه عباس بن ناصح الأندلسي ، وطلب أن يسمع شيئاً من شعر جعونة ، وذلك حين التقى أبو نواس بابن ناصح في العراق (١) .

ومع كل ذلك ليس بين أيدي الباحثين اليوم إلا قليل جداً من شعر هذا الشاعر ، الذي اهتم به أبو نواس ، والذي قيل إنه في مرتبة جرير والفرزدق ، والذي قيل إنه كان يجب أن يستشهد بشعره . ومن هذا القليل الذي حفظ من شعر جعونة قوله :

ولقد أراني من هواي بمنزل عال ورأسي ذو غدائر أفرع
والعيشُ أعيدُ ساقطُ أفنانه والماء أطيبه لنا والمرتع (٢)

ومن شعراء تلك الفترة كذلك :

أبو الخطار حسام بن ضيرار . . وقد كان من أشراف القحطانيين في الأندلس ، ومن شهدوا فتوح المسلمين بإفريقيا وأبلاوا فيها . وقد وفد على الأندلس والياً سنة ١٢٥ هـ - ٧٤٢ م أيام هشام بن الملك . وكان شاعراً فارساً ؛ ولذا لقب بعنزة الأندلس (٣) . وهو كسابقه . لم يعثر إلى اليوم إلا على قليل من شعره . فمن ذلك قوله في ثأر أخذه لعزير من قومه :

فليت ابن جواسٍ يجبر أنبي سعتُ به سعي امرئٍ غير عاقلٍ

- (١) راجع في أخبار الشاعر : ابن سعيد : المغرب ج ١ ص ١٣١ - ١٣٢ . والمقري : نفع ج ٢ ص ١٥٦ . والضبي : بغية الملتمس . ترجمة رقم ٦٢٢ والحميدى : جذوة المقتبس ١٨٧-١٨٨ .
- (٢) ورد هذان البيتان بهذا التحقيق في المغرب ج ١ ص ١٣٢ .
- (٣) انظر في أخبار أبي الخطار : بغية الملتمس للضبي ت ٦٨٦ ، وجذوة المقتبس للحميدى ص ١٨٨ - ١٨٩ ، وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ١٨ - ١٩ ، وأخبار مجموعة ص ٥٦ - ٦٠ .

قَتَلْتُ بِهِ تَسْعِينَ تَحْسِبُ أَنَّهُمْ جَذُوعٌ نَحِيلٌ صُرَّعَتْ فِي الْمَسَائِلِ
 وَلَوْ كَانَتْ الْمَوْتَى تَبَاعَ اشْتَرِيْتَهُ بَكْنَى وَمَا اسْتَشْنَيْتَ مِنْهَا أَنَامِلِي^(١)

ومن شعره أيضاً قوله في معاتبة للحكام المروانيين على نصرتهم للقيسين على اليمنيين :

أفأتم بنى مروان قيساً دماغنا وفي الله إن لم تنصفوا حكم عدل
 كأنكم لم تشهدوا « مرج راهط »^(٢) ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
 وقيناكم حمر الوغى بصدورنا وليست لكم خيل تُعَدُّ ولا رَجُل
 فلما رأيتم واقد الحرب قد خبا وطاب لكم منها المشارب والأكل
 تغافلتم عنا كأن لم يكن لنا بلاء وأنتم - ما علمت - لها فعل
 فلا تجزعوا إن عضت الحرب مرة وزلت على المرقاة بالقدم النعل^(٣)

هذان شاعران تردد شعرهما في الأندلس خلال فترة الولاة ، ومن المحقق أنهما لم يكونا وحدهما اللذين عُرِفَا بقول الشعر في تلك الفترة ، وإنما كان هناك آخرون^(٤) نسيت أسماؤهم وضاعت أشعارهم ، مع الكثير مما نسي وضاع من تراث الأندلس ، وخاصة في هذه الحقبة المتقدمة المضطربة من تاريخها .

(١) الحميدى : جذوة ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) معركة دارت بالشام سنة ٦٥ هـ في عهد مروان بن الحكم ومعهم اليمنيون بقيادة حسان بن مالك الكلبي ضد القيسيين المشايخين لابن الزبير بقيادة الضحاك بن قيس الفهري ، وانتهت بهزيمة الضحاك وانتصار اليمنيين ، وكانت معركة حاسمة دعمت قيام الدولة مروانية في الشرق .

(٣) هذا نص الأبيات في تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، مع إغفال بيت أعير ورد ناقصاً هكذا : . . . حبل الوصل وانقطع القوى ألا ربما يلوى فينقطع الحبل
 وقد جاءت الأبيات في الجذوة بصور مغايرة قليلا للصورة التي جاءت عليها في كتاب ابن القوطية . وقد آثرت الأولى لأنها أسبق .

انظر جذوة المقتبس ص ١٨٩ وتاريخ افتتاح الأندلس ص ١٨ - ١٩ .

(٤) من شعراء ملك الفترة : بكر الكناني الذي سأله عنه أبو نواس عباس بن فاصح كما سأل عن جموعة بن

الصمة السابق الذكر : انظر المقرئ ج ٢ ص ١٥٦ .

وإذا جاز لنا أن نتصور خصائص الشعر في هذه الفترة ، فنحن ملزمون بالحذر الشديد لقلّة ما بين أيدينا من نصوص ، ونحن مضطرون إلى الاسترشاد بما لدينا من أخبار بعض الشعراء الذين عاشوا في تلك الفترة ، لنعوض بتلك الأخبار قلّة الشعر ، ثم نحن مضطرون آخر الأمر إلى الاعتراف بأن هذا التصور تقريبي ظني لا حقيقي قطعي . وعلى هذا الأساس يمكن أن يقال : إن شعر هذه الفترة ليس له من الأندلسية إلا أنه فيل في الأندلس ؛ فقائلوه في الحقيقة مشاركة وفدوا على الأندلس فيمن وفد مع الفتح وبعده . ثم هو بعد ذلك شعر مماثل لذلك الشعر المحافظ الذي كان شائعاً في المشرق في ذلك الحين ، والذي كان من أعلامه جرير والفرزدق . فهو شعر يتناول في موضوعاته المدح والهجاء والفخر والحماة ، كما رأينا في بعض النماذج القليلة التي حفظت لنا ، وكما تدل أخبار بعض الشعراء ، ثم هو شعر يجرى على تقاليد المدرسة المحافظة Clasica ولا ينعكس عليه من الأندلس أي أثر ؛ فهو يُعنى بجزالة اللفظ وفخامة العبارة ، ولا يُرى في معانيه كثير من تعمق الفكر . ولا يلمح في صورته نصيب من تخليق الأخيصة ، وإنما هو أميل إلى البداوة . وأقرب إلى الخشونة .

وربما كان هذا الشعر أنسب شيء إلى طبيعة الناس وظروفهم في ذلك الحين ؛ فقد كانوا لا يزالون على كثير من بدائيتهم ، متمسكين بقبليتهم ، ولم يصيبوا بها من الثقافة والتحضّر والتأثر بالحياة الجديدة ، ما من شأنه أن يوجه شعراءهم إلى تجارب شعرية محدثة وأساليب فنية مميزة .

(ب) النثر :

ربما لم يكن بين أيدي الباحثين اليوم نماذج ذات شأن من نثر تلك الفترة من تاريخ الأندلس . ولكن الذي لا شك فيه . أن هذه الفترة عرفت بعض النثرين وكان لها حظ ولو ضئيل من النثر ؛ بل ربما كان هذا الحظ على ضآلته أوفر من حظ الشعر . ذلك أنه

كانت هناك دواعٍ للنثر أكثر من دواعي الشعر ؛ فالخطابة كانت ضرورة تقتضيها ظروف الحرب والنزاع القبلي^(١) . وتتطلبها مناسبات سياسية ودينية مختلفة . ولا يمكن أن نتصور المسلمين في الأندلس قد عاشوا فترة الولاة دون أن يصغوا إلى خطباء ؛ فهم على الأقل كانوا يستمعون إلى هؤلاء الوعاظ والدعاة الذين كانوا عادة يصحبون الجنود ويفدون على الأقاليم الجديدة ليثبتوا المقاتلين ، ويدعوا للنظام الجديد^(٢) .

والكتابة كانت كذلك ضرورة تقتضيها ظروف الفتح والحكم وتسيير الشؤون ، وتتطلبها أيضاً مناسبات رسمية وشخصية عديدة ، كعهد يُعطى وصلاح يُبرم ورسالة توجه .

وقد حفظت لنا بعض المراجع قليلاً جداً من كتابات فترة الولاة ، كما حفظت أيضاً بعض أسماء الكتاب القليلين . فما حفظ من الكتابة عهد عبد العزيز بن موسى بن نصير « لتؤدمير » أحد حكام القوط . وقد جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد العزيز إلى تلمير ، أنه نزل على الصلح وأنه له عهد الله وذمته ، ألا ينزع عن ملكه ، ولا أحد من النصارى عن أملاكه . وأنهم لا يقتلون ولا يُسبون ، أولادهم ونساءهم ؛ ولا يكرهون على دينهم ، ولا تحرق كنائسهم ، ما تُعبّد وتُصح . وأنه لا يأوى لنا عدواً ولا يخون لنا أمنا ، ولا يكتم خبراً علمه . . . »^(٣)

ومما حفظ كذلك من كتابة تلك الفترة ، جزء من رسالة يوسف الفهرى آخر الولاة ، إلى عبد الرحمن بن معاوية حين علم بنزوله بالأندلس . والمرجح أن محرر تلك الرسالة هو خالد بن يزيد ، كاتب يوسف الفهرى ورسوله إلى عبد الرحمن ، حين أراد أن يتألفه ويتفادى خطره^(٤) . وذلك هو الجزء الذي بقي من الرسالة :

(١) انظر ما كان من قول الصميل بن حاتم لأصحابه ، في البيان المغرب ج ٢ ص ٥٠ . وما كان بين الصميل ورجل عارضه ، في أخبار مجموعة ص ٦١ .

(٢) انظر : ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٧٤ - ١٨٥ .

(٣) Castri : Biblioteca Arabico Hespána Ecurialensis II, p. 105.

(٤) انظر : البيان المغرب لابن عذارى - ٢ ص ٦٧ .

« أما بعد ، فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب ، وتأبش^(١) من تأبش إليك ونزع نحوك من السراق وأهل الحر والغدر ونقض الأيمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبه جل وعلا نستعين عليهم . ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيش ، حتى غمصوا^(٢) ذلك ، واستبدلوا بالأمن خوفاً ، وجنحوا إلى النقص ، والله من ورأهم محيظ . فإن كنت تريد المال فأنا أولى بك ممن لجأت إليه ، أكنفك وأصل رحمك وأنزلك معي إن أردت ، أو بحيث تريد . ثم لك عهد الله وذمته بي ، ألا أغدرك ، ولا أمكن منك ابن عمي صاحب إفريقية ، ولا غيره . . . »^(٣)

ومن الكتاب القليلين الذين عملوا في تلك الفترة : خالد بن يزيد . الذي كان كاتباً ليوسف الفهري أحد ولاة الأندلس .

ومنهم كذلك أمية بن زيد ، الذي دخل الأندلس مع جنود بلنج بن بشر ، واتصل بخالد بن زيد فجعله كاتباً معه . وقد اشتغلا بالكتابة حتى أيام عبد الرحمن الداخل . . . وعلا له بعض الوقت^(٤) .

وإذا جاز لنا أن نتصور نثر تلك الفترة . فإننا بعد الخذر الشديد والاستعانة بتصور حال تلك الفترة من النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية ، نتصوره نثراً يتناول مسائل الدين وشئون السياسة وأمور القبائل في خطبه ، ويعالج العهود والرسائل والتوقيعات في كتابته . وذلك لأن كل ذلك مما تقتضيه طبيعة تلك الفترة وتتطلبه ظروفها . أما الخصائص الفنية لهذا النثر ، فهي خصائص النثر المشرق الذي كان معروفاً في عصر بني أمية . فهو نثر يعيل إلى الإيجاز ويعنى بقوة العبارة أكثر من عنايته بتجميلها ، ثم هو لا يعرف

(١) تأبش : تجمع وتبش .

(٢) غمصوا : أنكروا واستقلوا .

(٣) انظر : البيان المغرب ج ٢ ص ٦٧ - ٦٨ .

(٤) انظر : إعتاب الكتاب لابن الأبار (مخطوط بالإنسكوريال رقم ١٧٣٦ ورقة ١٠ ، ١١)

تلك المقدمات الطويلة والرسوم المرعية والألقاب العديدة ، وما أشبه ذلك مما جاء مع العصر العباسي ، وما كان من أسبابه اختلاط العرب بالفرس . وربما أيد هذا التصور ما يعرف من أن النثرين - كالشاعرين في تلك الفترة - كانوا جميعاً مشاركة الأصل والثقافة ، ومن شأنهم أن يسيروا على ما عرفوا في المشرق من أساليب . وربما ساعد على هذا التصور أيضاً ، ذلك العهد الذي كتبه عبد العزيز بن موسى . ثم هذه الرسالة التي وجهها يوسف الفهرى إلى عبد الرحمن بن معاوية ؛ فهما على قصرهما ظاهرنا الدلالة على بعض ما ذكرنا من خصائص النثر في فترة الولاة .

٥ - الأدب المنسوب إلى طارق :

وربما كان من المكمل للحديث عن الأدب في فترة الولاة ، أن نعرض لنصين نسبوا إلى طارق بن زياد ، أحدهما أبيات من الشعر يقول فيها :

ركبنا . سفيناً . بالمجاز مقبِراً عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوساً وأموالاً وأهلاً بجنة إذا ما اشتبهنا الشيء فيها تيسراً
ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا إذا نحن أدركنا الذي كان أجدرنا^(١)

وثاني النصين خطبة قيل إنه ألقاها في جنوده يحمسهم على القتال بعد أن نزل بهم بلاد الأندلس ، وبعد أن أحرق السفن التي حملته وجنوده من شمال إفريقيا إلى جنوب إسبانيا .

ونص تلك الخطبة هو : « أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر وراءكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيق من الأيتام في مأدبة اللثام ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصون من أيدي عدوكم ، وإن امتدت

(١) القرى : نفع ج ١ ص ١٢٤ .

بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهب ربحكم ، وتعرضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ؛ فقد ألفت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ؛ ولا حماتكم على خطة - أرخص مناع فيها النفوس - أبرأ منها بنفسى . واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا . استمتعتم بالألد الأرفه طويلا . فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه بأوفر من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم ملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستياحكم بمجالدة الأبطال الفرسان ، ليكون حظهم منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة ؛ وليكون فتحها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى إنجازكم على ما يكون لكم ذخراً فى الدارين . واعلموا أنى أول مجيب لما دعوتكم إليه ، وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى . فاحملوا معى ، فإن هلكت بعده ، فقد كفيتمكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفوني فى عزيتمى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا إليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يخذلون» (١) .

ولو صحت نسبة هذين النصين إلى طارق بن زياد . لكانا أول أدب عربى تردد فى الأندلس ، ولكانا فى طليعة النصوص التى تعثر بها فترة الولاة . ولكن نسبة هذين النصين إلى طارق يحف بها كثير من الشك ، وذلك لعدة أسباب . منها أن طارق بن

(١) المقرئ : نفع ج ١ ص ١١٢ .

رياد كان بربرياً مولى لموسى بن نصير^(١)؛ ومن شأنه أن يكون حديث عهد بالعربية ، وألا يستطيع الخطابة والشعر بلغة هو حديث عهد بها . فقد ولى موسى بن نصير قيادة المغرب على الأرجح سنة ٨٩ هـ أيام الوليد بن عبد الملك ، ومن المعقول أن تكون هذه السنة هي مبدأ ارتباط طارق بموسى ، وربما بالإسلام والعربية أيضاً ، فإذا كان فتح الأندلس سنة ٩٢ هـ ، فإن عمر طارق في الإسلام واتصاله بالعربية يكون فترة وجيزة يستبعد معها أن يجيد طارق لغة العرب إجادة تسمح له بنظم الشعر وإلقاء الخطب^(٢)

ومن أسباب الشك في هذا الأدب المنسوب إلى طارق ، أن المصادر الأولى التي سجلت حوادث تفاصيل الفتح ، قد نخلت تماماً من أى حديث عن هذا الأدب مع أنها تناولت تفاصيل يدخل بعضها في باب الأساطير . وقد استوت في ذلك الصمت عن هذا الأدب ، المصادر الأندلسية^(٣) والمشرقية^(٤) جميعاً . ولم يرد هذا الأدب المنسوب إلى طارق إلا في بعض المصادر المتأخرة كثيراً عن فترة الفتح ، مثل نفع الطيب للمقرى^(٥) الذى أورد الخطبة دون أن يخبرنا عن المصدر الذى نقلها عنه ، وأورد الشعر معتمداً — كما قال — على كتابي المسهب والمغرب ، وهما بدورهما متأخران كثيراً عن فترة الفتح^(٦) . ومن أسباب الشك في نسبة الخطبة بخاصة إلى طارق ، ذلك الأسلوب الذى جاءت به ؛ فهو أسلوب لم يكن معروفاً في النثر العربى خلال الفترة التى تعزى إليها تلك الخطبة .

(١) وقيل أصله فارسي . والرأجح كونه من البربر . انظر البيان المغرب ج ١ ص ٧ .

(٢) وحتى لو فرضنا أن طارقاً كان على صلة بالإسلام والعربية قبل ولاية موسى ، لأن له أبوين في الإسلام كما يذكر ابن عذارى في البيان المغرب — فإن ذلك لا يتيح له معرفة العربية إلى درجة قول الشعر وإلقاء الخطب بها ، لأن أحوال المغرب في تلك الآونة لم تكن تسمح بتأدب .

(٣) مثل : أخبار مجموعة لمؤلف مجهول ، وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية .

(٤) مثل فتوح مصر لابن عبد الحكم ، وفتوح البلدان للبلاذرى .

(٥) وهو مغربى من علماء القرن الحادى عشر هـ .

(٦) المسهب للحجائرى . والمغرب لابن سعيد . وهما أندلسيان عاش أولهما في القرن السادس الهجرى

وعاش الثانى في القرن السابع .

فالسجع الكثير والمحسنات المتكلفة قد عاشت في عصر متأخر كثيراً عن القرن الأول الذي قالوا إن ابن زياد قال خطبته فيه ، والمعروف أن الخطابة في تلك الفترة كانت كتماذج الحجاج وزياد وقطرى وغيرهم ممن عرفهم العصر الأموى . والخطبة التي بين أيدينا - منسوبة إلى طارق - بعيدة كل البعد عن خصائص الخطابة المعروفة حينذاك ، وإنما هي أقرب إلى خصائص أواخر العصر العباسي . وربما إلى ما بعد ذلك حيث شاع السجع وكثرت المحسنات .

وشيء آخر قد جاء في نص الخطبة يبعد أن يقوله طارق . وهو قوله بلجده - وكانوا كما نعرف من البربر - « وقد اختاركم أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً » ؛ فطارق كان يعرف أن جنوده من البربر ، وجنوده كانوا يعرفون أنهم ليسوا عرباناً ، ومن هذا يبعد أن يكون قد خطبهم بهذا الكلام الذي لا يقوله إلا غير عالم بحقيقة جيش طارق .

لهذا كله يرجح أن يكون هذا الأدب المنسوب إلى طارق من وضع بعض الرواة المتأخرين كثيراً عن فترة الفتح ، والمتأثرين كثيراً بأسلوب أواخر العصر العباسي وربما بالعصر المملوكي . وقد كان الرواة والقصاص يضعون كثيراً ، مازجين التاريخ بالقصص والأساطير ، وقد أحاطوا الفتح الأندلسي خاصة بكثير من أقاصيصهم وأساطيرهم . فأغلب الظن أن هذا الأدب المنسوب إلى طارق بعض ما وضع هؤلاء الوضاعون^(١) . حقيقة قد يكون طارق خطب جنوده محملاً مشجعاً ، وقد يكون تغنى انتصاراته مفاخرأ مباحياً . ولكن المعقول أن يكون ذلك بلغته البربرية التي كان يجيدها والتي كان يفهمها جنوده .

(١) أما مسألة إحراق السفن فلم ترد إلا في : نزعة المشتاق للإدرسي (ص ١٧٨) وهو من مؤلفي القرن الخامس الهجري . وكل المراجع السابقة قد سكنت عن تلك الحادثة تماماً . ولكن من الطريف أن فاتحاً حديثاً عمل نفس العمل الذي ينسب إلى طارق ، وأكثر من ذلك أنه إسباني . فعند ما أشرف هرثانفو كروتيس على شاطئ المكسيك فاتحاً سنة ١٥١٩ أمر بإحراق سفنه التي قدم عليها جيشه من إسبانيا . والمعقول أن يكون هذا القائد قد تأثر بما نسب إلى طارق قبل ذلك بنحو ثمانية قرون .

على أن الشك في نسبة هذا الأدب إلى طارق لن يغض من عظمة القائد ولا من جمال الأدب ودلالته ؛ فلن يعيب القائد البربرى العظيم ألا ينحطب أو يشعر بالعربية ، تلك الفترة المبكرة من تاريخ البربر في الإسلام . ولن يعيب هذا الأدب ألا يقوله لطارق ، وأن يقوله متأخر صور به - على قدر خياله - ما كان من القائد البربرى وجيشه حينذاك .

وربما أفاد نفي نسبة الخطبة إلى طارق ، في رد زعم من آثموا جيوش الإسلام الفاتحة بالطمع والرغبة في السلب والنهب ، لا في نشر العقيدة والتمكين للدين الذى به يدينون . فالمسئول عن الأطماع التى في هذه الخطبة ، هو خيال مؤلفها ؛ فضمونها لا يعدو أن يكون خيالا لمؤلف أديب لا فكرة لقائد مسلم .

الفصل الثاني
فترة تأسيس الإمارة

١ - في سبيل استقرار سياسي :

تمثل هذه الفترة في عهد عبد الرحمن الداخل وابنه هشام وحفيده الحكم^(١) وأهم ما تمتاز به من الناحية السياسية ، أنها كانت فترة علاج لكثير من الأمراض التي عاناها الحكم الأندلسي في فترة الولاة ، فقد وفد عبد الرحمن الداخل على الأندلس ، وبها القبائل العربية المتنازعة على السلطان . وبها أيضاً جماعات البربر الناقمة على العرب الاستتار بالأمر ، وبالإضافة إلى العرب ومنازعاتهم والبربر ونقمتهم ، كان يوجد المسيحيون اللاتيون بالمناطق الشمالية من شبه الجزيرة ، ثم الفرنج المتربصون فيما وراء البرانس . وكان هؤلاء وأولئك يتحذرون لمطاردة المسلمين لأنهم - في زعمهم - يمثلون خطراً لا على إسبانيا وحدها بل على أوروبا كلها .

من أجل هذا قضى عبد الرحمن الداخل كل سني حكمه تقريباً في كفاح داخلي وجهاد خارجي ؛ فقلل من شأن الاستقرارية العربية باستخدام غير العرب واصطناع الموالى^(٢) ، وقضى على الزعامة القبلية بالتخلص من كل من تحدته نفسه بالثورة أو التمرد ، وحاول ما استطاع أن يؤمن حدود الدولة الإسلامية في الأندلس ضد مسيحي الإسبان والفرنج ، بقيادة الجيوش وتسيير الحملات إلى هؤلاء وأولئك .
وفعل هشام بن عبد الرحمن مثل ما فعل أبوه ، وسار الحكمم الربضي سيرة الأب

(١) حكم الداخل من سنة ١٣٨ إلى ١٧٢ هـ (٧٥٥ إلى ٧٨٨ م) .

وحكم هشام من سنة ١٧٢ إلى ١٨٠ هـ (٧٨٨ إلى ٧٩٦ م) .

وحكم الحكم من سنة ١٨٠ إلى ٢٠٦ هـ (٧٩٦ إلى ٨٢٢ م) .

فتكون هذه الفترة من سنة ١٣٨ إلى ٢٠٦ هـ (٧٥٥ إلى ٨٢٢ م) .

(٢) انظر : نفع الطيب للمقرئ ج ١ ص ١٥٦ .

والحد^(١) ، وكان أشبه بالداخل في الحزم والصرامة والقسوة من أجل تثبيت النظام وتدعيم الحكم . وقصة إخاده لثورة الربض من أوضح الأدلة على طريقته في السياسة ومعالجة الأمور ، ومن أوضح الأدلة على طابع سياسة العصر .

وثورة الربض ثورة قام بها سكان الضاحية القرطبية المسماة بهذا الاسم ، وكان أكثرهم من المولدين - أي الإسبان المسلمين - وقد كانت ثورتهم ذات أسباب بعيدة ترجع إلى سخط العامة - وخاصة المولدين - على الأمير الحكم لما اشتهر به من تحرر وعدم مبالاة ، وكان لدعايات الفقهاء أثر كبير في إقناع العامة بالسخط على الأمير .

أما السبب المباشر للثورة فهو مشادة وقعت بين أحد مماليك الحكم وصيقل سيوف من العامة ، وقد كان من نتائج تلك المشادة أن قتل الصيقل بيد المملوك بنار العامة، وكان أشدهم هياجاً أهل الربض الجنوبي . الواقع على الضفة الأخرى لنهر الوادي الكبير . وزحفت جموع الثوار على القصر الأميري وأحاطوا به من كل ناحية ، وكادوا يقضون على الأمير والإمارة جميعاً ؛ لولا أن تنبه الحكم إلى حيلة فيها ذكاء وفيها قسوة أيضاً ؛ فقد أرسل بعض أعوانه إلى الربض فأشعل فيه النار ، وهنا اضطر الثوار إلى الإسراع إلى ربضهم لإنقاذ أولادهم ونسأهم وذويهم . وانتهز الحكم الفرصة فأمر جنوده بالانقضاض على الثوار وهم في انسحابهم واضطرابهم ، فأمعنوا فيهم قتلاً وأسرّاً ، ثم أمر الحكم بالربض فهدم ، وبالباقين من أهله فطردوا^(٢) .

(١) انظر لتصوير كنفاح عبد الرحمن وابنه وحفيده : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٧٢ ما بعدها . وأخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص ٦٧ وما بعدها .

وانظر أيضاً : Al Borno : La Espana musulmana, vol. I, pp. 88 ff.

Levi : Espana musulmana, pp. 67 ff.

(٢) انظر في واقعة الربض : البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١١٣ وما بعدها ، ونفح الطيب للمقرى ج ١ ص ١٥٩ ، والمعجب لعبد الرحمن المراكشي ص ١٢ وما بعدها .

وانظر كذلك : Palencia, Historia de la Espana musulmana, pp. 26 ff.

ومن هنا نرى أن تلك الفترة من الناحية السياسية كانت فترة علاج لكثير من أدواء الحُكْم التي عانتها الأندلس من قبل. وقد كان لهذا العلاج مقتضياته من البر حيناً ومن إسالة الدم حيناً آخر .

وهكذا شهدت تلك الفترة بعض الحروب وأعمال العنف ، ولكنها كانت في سبيل الاستقرار السياسي الذي خلف تقدماً وأمناً ، ولم تكن المسألة مسألة منازعات وحروب تخلف ضياعاً وتعويقاً فقط كالفترة السالفة .

٢ - في سبيل مجتمع أندلسي :

كان من أهم ظواهر المجتمع الأندلسي في تلك الفترة ، ضعف العصبية القبلية والمنازعات العنصرية ، ثم اتجاه سكان الأندلس إلى وحدة اجتماعية يصلون إلى ذروتها في عهد الخليفة الناصر. وكان ذلك بفضل جهود عبد الرحمن الداخل ومن حكم من بعده من أبنائه . وقد ذكرنا أنه كسر شوكة الارستقراطية العربية وحد من عصبية القبائل ، بمطاردة الزعماء المناوئين أولاً ، وباستخدام كثير من الموالى وغير العرب ثانياً . وقد عُرِف أن أبنائه ساروا على سنته بل بالغوا فيها حتى كان عدد الموالى والصقالبة في عهد الحكم خمسة آلاف^(١) .

وكان من أهم ظواهر المجتمع كذلك في تلك الفترة ، ظهور طبقة اجتماعية جديدة أصبح لها كيانها ومكانتها بين طبقات المجتمع الأندلسي ؛ تلك الطبقة هي طبقة المولدين ، التي تتألف من أبناء الإسبان الذين اعتنقوا الإسلام ، وكثروا بمضى الزمن واستمرار الدخول في الدين الجديد . ولا شك أن وجود مثل هذه الطبقة قد زاد من الأثرية المسلمة حينئذ. وصبغ الحياة الإسبانية بصبغة أكثر إسلامية وعروبة .

(١) انظر : المغرب لابن سعيد ج ١ ص ٢٥ .

كذلك كان من أهم المظاهر الاجتماعية في فترة تأسيس الإمارة الأموية ، هذا التقدم الحضارى النسبي الذى خطط نحوه الأندلس ، ممثلاً في أعمال الإنشاء والتعمير والتجميل التى قام بها الداخل وأبناؤه من بعده ، فقد أسس عبد الرحمن مسجد قرطبة الجامع (١) ، كما أنشئ في عهده وفي عهد بنيه كثير من المساجد في أقاليم مختلفة من الأندلس . كذلك أنشأ عبد الرحمن الرصافة التى كانت مقر الإمارة بالشمال الغربى من قرطبة ، وأقام سوراً للعاصمة الأندلسية . وغرس بها بعض الحدائق الجميلة ، وجلب أنواعاً من المزروعات المشرقية (٢) .

وأخيراً كان من أهم مظاهر المجتمع الأندلسى في تلك الفترة ظهور شخصية المرأة في مجال الفن ، فقد استقدم عبد الرحمن الداخل بعض الفانات المشرقيات وأسس لهن بالقصر داراً عرفت بدار المدينيات ؛ لأن أغلبهن كن من المدينة التى اشتهرت بفنون الموسيقى والغناء في تلك السنوات . وكان من هؤلاء الفانات المدينيات اللاتى وضعن بنور الموسيقى العربية في الأندلس : فضل وعلم والعجفاء . كما كان من الفانات اللاتى عرفن في تلك الفترة : قلم ، وأصلها إسبانية من سبى البشكنس . ولكنها أدبت في المدينة ، وعملت بعد ذلك في دار المغنيات مع صواحبها (٣) .

وهكذا كان المجتمع الأندلسى في تلك الفترة ، مجتمعاً مستقراً نسبياً ، فهو يحيا أكثر أمناً في ظل حكومة مدعمة . وهو يعيش أكثر وحدة في حمى نظام حارب القبلية والعصبية ، وفتح الطريق للأندلسية الحقة . ثم كان المجتمع في تلك الفترة يفتح عينيه على بواكير حضارة ، أراد الأمويون أن يعيدوا بها في الأندلس حضارة فقدوها بالشرق .

(١) انظر في تاريخ هذا المسجد : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٣٤١ وما بعدها .

(٢) انظر : نفع الطيب المقرئ ج ١ ص ٢٧ . وكتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٣٣

(٣) انظر أخبار هؤلاء الفانات في : نفع الطيب ج ٢ ص ١١٨ ، ١١٩ .

٣ - أولية الثقافة الأندلسية :

خطت الأندلس في تلك الفترة أولى الخطوات نحو الثقافة الأندلسية الحقة . وقد دفعت الأندلس عوامل مختلفة ، وساعدتها على الخطوة الأولى في سبيل ثقافتها . وكان من تلك العوامل :

وفود كثير من الأمويين وأنصارهم واللائذين بهم على الأندلس^(١) . وقد كان قدوم هؤلاء ، إما فراراً من العباسيين ، وإما رغبة في الحياة بالإقليم الإسلامي الجديد المعروف بكثرة الخيرات . ولا شك أن كثيراً من هؤلاء الوافدين على الأندلس كانوا على حظ كبير من الثقافة وقدر عظيم من المعرفة ، ولا شك أن حياتهم في الأندلس ستدفع ثقافتهم وتشجع معارفهم وتساعد البلاد على أن تخطو في طريق الثقافة .

كذلك كان من أهم العوامل التي دفعت الأندلس إلى الخطو نحو حياتها الثقافية ، رجوع أول فوج من الأندلسيين الدارسين في المشرق ؛ فقد كان هؤلاء بمثابة أعضاء البعثات الذين يتعلمون خارج بلادهم ثم يعودون ليشيعوا ما تعلموا بين أهلهم وفي أرجاء وطنهم . ومن أمثلة هؤلاء العائدين بعلم المشرق في فترة تأسيس الإمارة : الغازي بن قيس ، الذي سمع من مالك موطأه ، ثم عاد في عهد الداخل فكان مكرماً له وسخيّاً عليه^(٢) . كذلك كان من هؤلاء العائدين : أبو موسى الهواري ، وعبد الملك بن حبيب ، ويحيى ابن يحيى الليثي ، وزيايد بن عبد الرحمن ؛ وكلهم من العلماء الكبار الذين يمثلون الجيل الأول من أهل الثقافة الأندلسية^(٣) .

(١) من هؤلاء : أبو الأشعث الكلبي الذي كان محدثاً يروي عن أمه عن عائشة . ومنهم جزى بن عبد العزيز أخو عمر بن عبد العزيز . ومنهم عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم الأموي . انظر : نفع الطيب ، ج ٢ ص ٧٧ وما بعدها .

(٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٥ .

(٣) انظر في الراحلين من الأندلسيين إلى المشرق : نفع الطيب المقري ج ١ ص ٢٣٦ وما بعدها .

ولن ننسى أن من أهم عوامل دفع الثقافة الأندلسية في تلك الفترة ، ما كان من إنشاء مسجد قرطبة وغيره ؛ فقد كانت المساجد في تلك الآونة بمثابة المدارس والجامعات . وقد كان مسجد قرطبة بالذات هو النواة الحقيقية للجامعة الأندلسية التي أسست في تلك الفترة ، والتي ستتسع في العصور التالية حتى تكون في القرن العاشر أعظم جامعات إسبانيا بل أعظم جامعات أوروبا .

وقد ظل الحال في تلك الفترة كما كان في الفترة السابقة تقريباً من حيث الاقتصار في الثقافة الأندلسية على العلوم الدينية والعربية ، وإن كان الأمر قد تطور إلى خطو نحو حياة ثقافية حقيقية ، بفضل تلك العوامل السالفة الذكر . فالدراسة في تلك الآونة كانت تدور غالباً حول كتاب الله حفظاً وتفسيراً وقرآناً ، وحول سنة الرسول رواية وشرحاً واستنباط أحكام ، ثم حول لغة القرآن والسنة . وما يتصل بها من شعر وأخبار وأدب على وجه العموم .

ولعل من المناسب هنا أن نشير إلى ظاهرة لها شأنها في حياة الأندلسيين الثقافية . تلك الظاهرة هي تحوُّمهم من مذهب الأوزاعي إلى مذهب مالك ، ثم بقاؤهم دائماً على هذا المذهب مع تعصب له يلفت النظر . فقد كان الأندلسيون أول الأمر أوزاعيين^(١) ، لأن أغلب العرب الداخلين إلى الأندلس كانوا من أهل الشام ، وكان أهل الشام على مذهب الأوزاعي ؛ فكان طبيعياً أن ينتقل الشاميون إلى الأندلس بمذهبهم . فلما جاءت الفترة التي نسوق عنها الحديث — وهي فترة تأسيس الإمارة الأموية — دخل المذهب المالكي إلى الأندلس وكان ذلك في عهد عبد الرحمن الداخل^(٢) ، ثم انتشر في عهد ابنه هشام ، حتى أصبح المذهب الرسمي للدولة أولاً ، والمذهب الغالب الشائع العام بين الناس ثانياً .

(١) انظر : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ج ١ ص ١٨١ .

(٢) انظر : حديث ابن القوطية عن الغازي بن قيس في : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٥ .

والفضل الأكبر في شيوع المذهب المالكي في الأندلس ، يرجع إلى طائفة من العلماء الأندلسيين المالكيين الذين درسوا المذهب في المشرق ، ثم عادوا إلى بلادهم وتمتعوا بنفوذ كبير . مكن لهم من نشر المذهب وإعطائه الطابع الرسمي . وفي مقدمة هؤلاء الفقهاء الذين مكنوا للمذهب المالكي : يحيى بن يحيى الليثي الذي درس على مالك نفسه ، وكان بعد ذلك من خاصة هشام بن عبد الرحمن الداخل .

على أن من أهم العوامل التي حملت الأندلسيين على الإعجاب بالمذهب المالكي والتمسك به والتعصب له ، موافقته لطبيعتهم العقلية ؛ فهو مذهب يعتمد على النص ، ولا يفسح المجال كثيراً للعقل ، وهو مذهب يكره التفرع والتفلسف والمنطق ، وما أشبه ذلك مما شاع في المذهب الحنفي مثلاً . ومن هنا وافق المذهب المالكي طبيعة الأندلسيين النافرين من التفرع ، المبغضين للتفلسف ، الكارهين للمنطق .

وربما كان لتعصبهم الشديد للمذهب المالكي ، وكرهيتهم للتفرع وتعدد المذاهب ؛ علاقة بما سبق أن قررناه من كونهم كانوا يعانون شبه مركب نقص أمام المشاركة ، وكان هذا يأخذ مظهر التعصب للمذهب الواحد والتمسك بكل ما هو نصي ، كأنهم يريدون بذلك أن يؤكدوا تمسكهم بالدين وبعدهم عن الزيغ وتجنبهم للشبهات ، وكأن هذا معناه في زعمهم اللاشعوري أنهم متفوقون على المشاركة في الدين برغم بعدهم عن مهده ، وأنهم أكثر محافظة على الإسلام برغم تأييم عن مشرقه .

٤ - أولية الأدب الأندلسي :

أول ما يلاحظ على الحياة الأدبية لتلك الفترة من تاريخ الأندلس ، ظهور أول جيل من الأدباء الأندلسيين الحقيقيين ، ثم يلاحظ أيضاً ظهور بعض أديبات الأندلس ، كذلك يلاحظ عدم اقتصار الاشتغال بالأدب على الشعب ، بل مشاركة الحكام فيه .

أيضاً . وقبل كل هذا يلاحظ ظهور السمات الأولى للأدب الأندلسي ؛ تلك السمات التي سوف تتزايد على مر العصور ، حتى تم ملامح الأدب الأندلسي بصورة واضحة .

وهكذا تشاهد هذه الفترة أول خطوات الأندلس نحو أدب أندلسي متميز ؛ ففيها ينشأ أول جيل من أدباء وأدبيات الأندلس ، ولا يصبح الأدب وفقاً على الوافدين من المشرق كما كان الحال من قبل ، وفيها تصاغ النماذج الأدبية الأولى ، التي تعد من تراث الأندلس بحق ، وفيها زيادة على ذلك تبدو تلك السمات الأولى ، التي تشكل أول خطوط الملامح الأدبية لهذا الإقليم الخاص . وسوف يتضح ذلك حين نتناول كلا من الجنسين الأدبيين تناولاً مستقلاً .

أولاً - الشعر :

كان الشعر الأندلسي في تلك الفترة يسير في اتجاه المدرسة المحافظة المشرقية *Classica* ولكن مع تميزه بسمات خاصة تشكل أوائل ملامحه منذ نشأته كشعر أندلسي .

(١) الاتجاه المحافظ :

أما مظاهر هذا الاتجاه المحافظ ، فتتمثل في أن الشعر الأندلسي كان يهتم أكثر ما يهتم بالموضوعات التقليدية ، من فخر ومدح وحماسة ، وما إلى ذلك ، ثم في أنه كان يسير على منهج الأقدمين في بناء القصيدة ، وفي تجميع صورها غالباً من عالم البادية ، وتأليف أسلوبها في الأعم من لغة تستوحى الذاكرة والتراث ، أكثر مما تستوحى العصر والواقع .

ولنتأمل مثلاً تلك النماذج :

يقول أبوالمخشي من قصيدة يمدح بها عبد الرحمن الداخل ويصف الرحلة إليه :

امتطيناها سماناً بُدنا فتركناها نضاء بالعنا
 وذريتي قد تجاوزت بها مهمها قفراً إلى أهل الندى
 قاصداً خير مناف كلها ومناف خير من فوق الثرى^(١)

ويقول أبوالمخشي أيضاً من قصيدة في مدح الداخل ، وتمجيد بعض انتصاراته
 والثناء على بطولة الأمير سليمان ابنه :

وإذا تساءلَ عن مواقع معشر وذويهم طلب الذي لم يُقدِّر
 رشد الخليفة إذ غرّوا فرماهم بالمؤيدِيّ الجهم والمتأزر^(٢)
 وغدا سليمان السباح عليهم كاللث لا يلوى على متعذر
 غاداهمُ متقنعا في مأزق بالموت مرتجس العوارض ممطر^(٣)
 أما سليمان السباح فإنه جتّى الدجى وأقام ميل الأصعر
 وهو الذي ورث الندى أهل الندى وبها مغبة يوم وادى الأحمر
 بعداً لقتلي بالمجانص^(٤) أصبحت جيفاً تلوح عظامها لم تقبر
 فالليل فيها للذئاب فرائس ونهارها وقع لنبش الأنسر
 أفناهم سيف مييد طرفه في قسطلونة بل بوادى الأحمر
 فلتركبئك ما هربت مخافة منه ، فقع يا ابن اللقيطة أوطر^(٥)

(١) وردت هذه الأبيات في الإحاطة لابن الخطيب (مخطوط بالإسكوريال رقم ١٦٧٣ ورقة ٢٥٢).

(٢) المؤيدى : فقيه القيس ، وحاكم المحوس ، والجهم : الغليظ . والمتأزر : المتقوى .

(٣) مرتجس : من ارتجست الساء أى أرعدت ، والعوارض : السحب العظيمة .

(٤) المجانص : جمع مجنص ، وهو اسم مكان من جنص أى مات فرماً .

(٥) وردت هذه الأبيات في مخطوطة الإحاطة التي سبقت الإشارة إليها .